وسام سعيد

الناجي الوحيد

رواية

دراما
غموض
ورعب

دار دَوِّن

الناجي الوحيد

وسام سعيد: الناجي الوحيد، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٣\٢٧٣٦٨ - الترقيم الدولي: ٢-٨٨٣-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميعُ حُقوقِ الطَبْعِ والنَّشرِ محْفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادَة طباعةَ أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تُعبر عن رؤية الناشر بالضرورة
وإنما تعبر عن رؤية الكاتب.
© دار دَوِّنْ

عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.
القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

وسام سعيد

الناجي الوحيد

رواية

لِنعدْ إلى النوم..

أشعر أنني بخيرٍ فقط على فراشي

"إرنست همنجواي"

ما السر وراء هدوء ووداعة مستشفيات الأمراض العصبية؟! لماذا تضمُّ حدائقَ غَنَّاء مُزهرة بورودٍ ملونة ولا صوت يعلو فيها فوق صوت العصافير المُغردة؟!

تلك اللوحة الرائعة التي يوحي خارجها بما لا يحدُث داخلها، تلك البِنايات الجميلة من الخارج والتي تمتلئ بأنَّات وآهاتٍ ومخاوفَ وهيستيريا نُزلائها المعذَّبين!!

في وسط حديقةِ إحدى مستشفيات الأمراض العصبية القابعة في أحد الأحياء الراقية، يجلسُ الرجل الخمسيني بملابسه الرياضية المُنَّمقة والأنيقة وحذائه الرياضي مطأطًا رأسه إلى الأرض، مشبكًا يدَيْه في بعضها.

طفِق الرجل بلا حركةٍ قُرابة الساعة لدرجة أن مَن ينظر إليه أو يُراقبه من بعيد يكاد يُقسم أنه أمام تمثال شمع لا يتحرَّك.

ولم يحدُث ما يغير هذا الوضع الساكن سوى كلمات الشاب الثلاثيني الذي اخترق صمته ووقف أمامه سائلًا بصوتٍ واضح:

- حضرتك أستاذ عماد؟!.... مِش كده؟!

بسذاجةٍ تَصوَّر هذا الشاب أن سؤاله البسيط ربما يحظَى برَدٍّ سريع ومباشر، لكنه يتحدث إلى نزيل - ليس بهيِّن - في مستشفى أمراض عصبية، نزيلٍ تلقَّى رغمًا عنه أكثر من حُقنة مُهدِّئة وجلسة كهرباء كي يجلس هادئًا ووديعًا في حديقة المستشفى، التي سجَّلت حالته تحت تشخيص فصام عقلي وذهاني حادٍّ بعد نجاتِه من محاولة انتحار شهيرة تحدَّثت عنها الصحف وأضْحَت حديث الناس في الشارع.

كرَّر الشاب سؤاله مرتين، حتى رفع (عماد) رأسه ببطءٍ ناظرًا إليه ولِما في يدَيه من أوراق وملفات بامتعاضٍ شديد واكتفى بذلك ولم يرد، مما دفع الشاب فورًا للجلوس بجانبه على نفس الأريكة الخشبية وبدأ الحديث:

- أستاذ عماد... بص... مش عايزك تقلق منِّي أو تتضايق...أنا اسمي محـ..

- عماد (مقاطعًا إيّاه): هو أنا قلتلك اقعد؟!

- نعم؟!!

- انت ما بتسمعش؟!!... اتفضل قُوم!!

- أستاذ عماد إديني فرصة أقـ...

- قووووم.... مش عايز أعرف إنت مين، اتفضّل بدَل ما أناديلك الأمن

- تفتكر هَدخُل لحَد هنا من غير تصريح يا أستاذ عماد... من فضلك تِهدَى وتِسمعني... مش حضرتك أصلًا قلت إنك عايز الكل يسمعك... ونِفسك تِحكي اللي حَصَلَّك والناس تِعرفه

- وانت مين بقَى؟!... إنت الناس؟!

- أنا صحفي يا أستاذ عماد... محمود بدر الدين...قسم التحقيقات جريدة الأهرام...إديني فرصة بس علشان أقولك إن قِصّتك دلوقت بقت تِهِم الناس كلها...وكله عايز يعرف إيه حكاية الراجل اللي طِلِع برج الجزيرة وحاول يرمي نفسه...ولولا الكلام اللي حضرتك قعدت ساعتها تقوله وانت على حرف السور ما كانش موضوعك بقَى رأي عام

حضرتك عارف إن المكان ده مليان مصوِّرين وصحفيين...أنا هنا علشان أساعدك يا أستاذ عماد فأرجوك ساعدني علشان أعَرَّف الناس كلها إنت ليه حاولت تنتحر.

- عايز تعرف إيه؟!

- إنت قعدت تزعق وتقول: (عيلتي راحت في ليلة... مشيوا كلهم وسابوني في ليلة... عيلتي كلها انتحرت).. يبقى أكيد اللي دفعك للانتحار هو إن حياتك مبقاش ليها معنى بالذات بعد انتحار عيلتك كلها...أنا محتاج أعرف ازاى عيلة بحالها تنتحر وفي ليلة واحدة...إزاى ده يبقى اختيار أصلًا؟!

- طب أعْمل إيه إذا كنت انت زيك زي الناس مش مصدق ومش عايز تصدق... ماحدش هيحس بالنار اللي جُوَّايا إلا انا؟!... اتفضل قوم أنا مش عايز لا صحفيين ولا زفت...يالَّا!!!

- أنا آسف آسف...أنا مصدق حضرتك طبعًا...أنا أقصد إني هاكون أول حد هيسمع مِنَّك ازاى عيلتك انتحرت في ليلة... ودوري بعد كِده أوصَّل صوتك للناس اللي شافتك وانت على وشك الانتحار.... أرجو تكون فهمتني يا أستاذ عماد!!

محمود بدر الدين صحفي تحقيقات مُحترِف وحكَّاء يجيد صناعة اللقطة معروف بكيفية اصطياد مصادره ونصب شِباكه ليستنطقهم ويُخرج ما في جُعبتهم من أسرار.

تنهّد (عماد) وبدَت ردود أفعاله طبيعية وأكثر اتزانًا وكأنه استساغ فكرة الفضفضة وإخراج ما في صدره من أسرار مخيفة وغير منطقية وليست قابلة للفَهم مما كاد يدفعه للجنون

لقد أحب (عماد) دور الحَكَّاء والراوي، وشعر لأول مرة أنه غير وحيد وأن ما في جُعبته طوال ٢٠ عامًا من أسرار عَصيَّة على الفَهم سوف تخرج للنور ويشاركه الناس فهم ماحدث من عجائب أدت إلى اختفاء عائلة بأكملها بين عشية وضحاها!!

كان هذا التفاوض على مرأى من مدير المستشفى الدكتور عزت القاضي الذي ظل يراقب الحوارَ دون أن يسمعه من شبّاك غرفته بعد أن سمح لصديقه الصحفي محمود بدر الدين بمرور آمن داخل المستشفى بشكل غير قانوني دونًا عن كل الصحفيين الذين تم منعهم من الدخول أو التواصل مع (عماد الدين القاضي) الرجل الذي أثار الرأيَ العام بوقوفه على حافة سور برج القاهرة الحديدي الشائك، ثم ظل يهذي ويردد مَا وَصَمه بالجنون والهَذَيان أمام الجميع فتم إيداعه في المستشفى بعنبر الخطيرين.

تلك الميزة فاز بها محمود دونًا عن غيره من الصحفيين؛ لأنه يُقدم للدكتور عزت خِدْمات عديدة في المرور والتراخيص والأوراق الرسمية كونه صحفيًّا بقِسم التحقيقات بالأهرام.

ظل الدكتور عزت يُراقب الحوار بين (عماد القاضي) والصحفي وهو يتعجّب من قدرة محمود على تطويع المريض. وفجأةً... قطع انتباه وتركيز الدكتور عزت تلك الرنة المزعجة القوية المنبعثة من التليفون العتيق الموجود على مكتبه، فنظر له بانزعاجٍ شديد ثم غادر النافذة مُتجهًا نحو مكتبه ليرد، وحين رفع السماعة جاءه الرد:

- الساعة العاشرة وخمسة وعشرون دقيقة وأربعون ثانية.

اندهش من تَلقِّيه لمكالمة الساعة الناطقة وهو لم يطلبها. فبادر برفع سماعة التليفون الداخلي ليحدث سكرتيرة مكتبه قائلًا:

- ميرفت، إنتي كنتي مسجلة طلب لمكالمة الساعة من شوية؟!

- مكالمة الساعة؟!!... إيه مكالمة الساعة دي؟!

- يا بنتي المكالمة اللي بنعرف بيها الساعة كام من التليفون دي؟

- طب ليه يا دكتور ما أنا قُدامِي ساعة هاطلبها ليه؟!

- طب خلاص خلاص... تلاقي التليفونات مش مجمعة وَلَّا حاجة...المهم جَهِّزيلي ملف النزيل (عماد الدين القاضي) حالًا عايزه على مكتبي وهيجيلي واحد صحفي من الأهرام اسمه محمود بدر الدين خَلِّيه يُدخل علطول

نهض (عماد) من مكانه بثبات وأشار إلى مكان ظَليل في رُكن من الحديقة وقال للصحفي الشاب:

- تعالَ نقعد هناك.. ومش عايزك تقاطعني وانا باحْكِي...تسمع وبس..مفهوم...تسمع وبس...وادِّيني عقلك بقى.. رغم إنه مش هيفيدك بحاجة في اللي هتسمعه دلوقت.

جلس الاثنان وأخرج محمود نوتة ورقية وراح يستمع إليه في شغَف، إذ بدأ (عماد) يحكي ومحمود يكتُب اعترافاته وأسراره التي قام بنشرها بأسلوبه على شكل حلقات وسلسلة تحقيقات أسبوعية في الصفحة رقم ٣ التي ينتظرها القارئ من الجمعة إلى الجمعة تحت عنوان سلسلة حلقات (الناجي الوحيد) حتى أصبح (عماد القاضي) أشهر شخصية في الشارع المصري والكل يتوقُ لرؤيته عَبْر شاشات التلفزيون بينما انقسم الناس بين مُتعاطف معه ومُتَّهِم له بالجنون بعد ما حكاه من أحداث مخيفة لا يصدقها العقل.

نشر محمود حلقاته المكتوبة، كل حلقة بعُنوان صحفي جذّاب وارتفعت أسهمه داخل الجريدة وفي الوسط الصحفي كله، بينما اعتاد عماد زيارة محمود له وصار ينتظرها كل أسبوع وهو يستعذِبُ الحديث معه، وفي كل مرة كان محمود يُغادر المستشفى إلى مبنى الجريدة ثم يقوم بكتابة ما سَمِعه وصياغته بأسلوبٍ ساحر شيق على لسان (عماد الدين القاضي) بطل الأحداث الحقيقية في

هذه الحلقات، والتي كان نصها من بدايتها لنهايتها مكتوب بصوت عماد على النحو التالي:

ما أقسَى الأيام... هكذا عوّدتنا.. ليس هذا فحسب، بل علينا ألَّا نتفاجأ بتلك القسوة.. وأن نتقبَّل الأمر لنكون أكثر جلَدًا، أو هكذا خدعنا الآباء والأجداد، فلم يقل لنا أحدهم إن الوحدة التي تَعْقُب الأُلفةَ، أكثر إيلامًا من الموت نفسه، وإن الحياة أكبر وأعقد من مجابهتها بمفردِنا.

فمنذ ذلك اليوم الفاصل وحياتي تنقسِم إلى ما قبل وما بعد، ولم يَعُد لي بدًا من أن أعيش أيامي المُتبقية بتعاقب ليل ونهار حتى أتوارى في الثرى ملتحقًا بمن ذهبوا وتركوني وحدي.

أنا عماد ضياء الدين القاضي رجلٌ عاديٌّ وبسيطٌ، لا أستحق كم الخوارق والغرائب التي واجهتُها، لست مختلفًا غرائبيًّا مثل الدكتور (رفعت إسماعيل) بطل سلسلة روايات ما وراء الطبيعة الذي عرف ورأى وشاهد وسمِع أحداثًا عجيبة ومُثيرة فتحوّلت حياته لفيلم سينمائي وقصص وروايات، فهو في النهاية صَنِيعة كاتب، ونسيج خيال.

أما أنا وما حدَث لي ورأيته ليس خيالًا، أو ضلالات أو أوهامًا، ولعل احتفاظي نظريًّا -أو كما أظن- بجزء من عقلي هو ضَرْبٌ من ضروب المعجزات بعد كل ما واجهته من ظواهر وخوارقَ وما يسمى بالعالم (الماورائيات).

والآنَ سأبوح لكم بمأساتي... سأحكيها..

سأحكي لكم رغم أن الحَكْيَ لن يمكنني تمامًا من العلاج أو نِسيان ما حدَث لأفراد عائلتي، الذين لم يتحملوا ما شاهدوه وسَمِعوه فاختاروا جميعًا الرحيل والموت هروبًا من فَهم ما لا تنام معه العين قَريرة أبدًا.

لقد رحلت أسرتي مُرغمين واحدًا تلوَ الآخر ولكلٍّ طريقته وأسلوبه في الرحيل، وإن اتفقوا جميعًا في المَوعِد حين اختاروا ليلة واحدةً، وكذلك في الشيء الذى دفعهم لفعل ذلك بعدما قلَب حياتهم رأسًا على عَقِبٍ. لقد اختارني القَدَر وحدي كي أعيش من بعدهم، وأفهم بعضًا مما عجزت عقولهم عن استيعابه.

لا أدري حتى الآن لماذا أنا تحديدًا؟! أنا عماد القاضي...الناجي الوحيد.

أسأل نفسي سؤالًا متأخرًا بعد مُضي سنوات على انتحارهم... لماذا لم أستسهل الحلَّ بدوري وأختار الرحيلَ والغِياب عن المَشْهدِ تمامًا تاركًا كل علامات الاستفهام خلف ظهري؟!

والآن، وأنا أحكي لكم.. مِن أين أبدأ؟ هل أبدأ بطفولتي وسنوات النضوج؟! لا أظن، فلا يوجد فيها ما يستحقُّ التوثيقَ، لكنني أكترِثُ بنقطة البداية...بداية الغرائب وكل شيء غير مألوفٍ.

رحلة العجمي...نعم.. أيام مَصِيف العجمي وما حدَث فيها هي الحكاية الأجدر بالبداية، فهي أول المأساة ونهاية السلام العائلي والنفسي.

نعم...سأبدأ بما حدَث في ذلك اليوم الفاصِل وتسبَّب في اختفاء عائلة بأكملها؟! سأترك الذِّكريات الأليمة تتدفَّق حتى تصطفَّ وتنتظر دورها تِباعًا على لساني.. والآن، اصغوا جيدًا وانتبهوا..

وتجلّدوا حِيال ما ستقرءونه من غرائبَ.

الحلقة الأولى
ليالي الرعب في العجمي

الأهرام مارس ١٩٨٤
اخترنا لك
العجمي سبتمبر ١٩٨٢

للمصايف رائحة وطعم لا تُخطئهما الذاكرة يومًا، تفاصيل قديمة احتلَّت الروح والعقل، وتنجح دائمًا وبجدارة في إعادة صاحبها لنفس المكان والوقت من كل عام في روتين ممتعٍ.

وفي ليالي الصيف الثمانيني وبالأحْرى على شاطئ (درويش) بالعجمي حيث فِلل وشاليهات أرقي عائلات مصر يحلو السهر والسَّمر، وكأنها عروض متواصلة للبهجة أو سيناريو سعادة لا ينقضي؟! فبعد نهارٍ حافل بالنشاط والمرح والرياضة والاستمتاع بالشمس والبحر، تعود الأُسر إلى الشاليهات ذات الأبواب والبلكونات المفتوحة ليلَ نهارٍ، لتقضيَ بقية اليوم بين حميمية العائلة، وصياح الأطفال ولهوهم، وصوت الإعلانات التجارية المُنبعث من التلفزيون.

مشهد محفور في ذاكرة جيل الثمانينيات، حين تفوح رائحة اللب والفول السوداني والبطاطا المشوية، وتوضع في أطباق بجانب البِطِّيخ المُثلج والتين الشوكي، على ضوء التلفزيون الذي يزين كل الشاليهات إذ يشاهد الجميع قناةً واحدة، وكلهم في انتظار فيلم السهرة العربي أو الفيلم الأجنبي الذي يقدِّمه برنامج (اخترنا لك).

اجتمعت عائلتي كلها أبناء وأحفاد والدي الكابتن (ضياء) وزوجاتهم في الفيلّا الخاصة به والتي اعتاد أن يُقيم فيها خلال شهور الصيف الثلاثة من كلِّ عام. فبمجرد اقتراب امتحانات آخر العام على الانتهاء يتَّجه أبي بصُحبة أمي (السيدة لطيفة) ومعها الخدَم ليفتحوا الفيلا معلنين بَدء عطلة الصيف، بعد مجهود عظيم في تنظيفها بفِعل الخدَم ومعاونة أمي.

وهذه المرة خصيصًا كان الجُهد مضاعفًا إذ كان البيتُ أكثر اتساخًا من ذي قبلُ بعد محاولة لسرقته واقتحامه والتي جرَت في الشتاء الماضي فاكتسى أثاث البيت بالتراب، فضلًا عن رائحةٍ كريهة تشبه رائحة البيض الفاسد كانت تحتل الأركان، والتي باءت محاولات أمي في اكتشاف مصدرها بالفشل.

وبعد حملة التنظيف، استعَدَّ البيت وكبير العائلة الكابتن (ضياء) لاستقبال العائلة؛ الأبناء والأحفاد والأزواج والزوجات. حيث كنتُ مع أختي الوحيدة (مريم) نتناوب بأُسَرنا وأولادنا الذهاب والإياب طوال شهور الصيف.

المرح والثرثرة غير الهادفة، والحديث عن التُّرَّهات هو السائد دائمًا في مثل هذه الجلسات العائلية الممتعة، حيث يتعمَّد الجميع الحديث بخفةٍ ومرحٍ، ولا مانع من بعض المقالب والتنمُّر

المُتبادل.

مرت الساعات قصيرة وسريعة بالطبع فهذه سِمة الأوقات السعيدة، وانتهى مشهد النهاية في سهرة الفيلم الأجنبي ونام أمامه من نام، وأتمه مَن أتمه.. وافترشت الأطفال حُجور أمهاتهم، والأرض، حتى حان وقت النهوض وانقضاء السهرة بعد نهاية إرسال التلفزيون وبدء قرآن ختام الإرسال الذي يكتفي أمامه الجميع بقول عبارة دارجة اعتدنا عليها كبارًا وصغارًا، وهي «صدق الله العظيم» ثم نضغط رزِّ التلفزيون ونغلقه استعدادًا للنوم.

دأبت كلُّ أمٍّ على إيقاظ أطفالها بشتى الطرق، ثم دلفت كل أسرة إلى غُرفتها، وبدأ الهدوء يحتل المكان، حتى قضى على آخر محاولات الجلَبة والضوضاء. كما بدأت الشاليهات المحيطة في إطفاء أنوار غرفها، وإغلاق أبوابها، حتى سكَن الهدوء الشارعَ وكل شوارع شاطئ)درويش(ببحره الهادئ الأزرق ورماله الزجاجية البيضاء.

الآن ... سكن الليلُ كما قالت فيروز، وسكن معه كل شيء -أو هكذا نظن- بعد أن افترش الخدَم والطُّهاة أرضَ الصالون في الطابق السفلي في طيات الظلام وخيوط من ضوء القمر.

لكن ساعات الليل الطويلة تأبى إلَّا أن تكسر حِدَّة المَلل، خاصة لدى من يعانون الأرق أمثالي وأصحاب العقول التي تجيد صياغة الهواجس، وتتفنن في تخويف أنفسها.

فقد لاحظت حين خرجت مِن غرفتي لإشعال سيجارة، أن ثَمةَ شيء أو ربما شخص مرّ أمام عيني سريعًا كظلٍّ خاطفٍ خارجَ البيت بمُحاذاة النوافذ، تحرك مرتين ذهابًا وإيابًا، أخَذتُ أدقِّقُ النظر من جديد لعل الصورةَ تتضح أكثر لكن بلا فائدةٍ، ولن أكذب وأوقول إنني تغلَّبت على شعوري بالقلق؛ لأنني لم أستطِع تخطِّي ما حدَث أبدًا ولم أستطع إخبار أحدهم في نفس الوقت

لم تكن سيجارة واحدة، بل واحدة تلوَ الأخرى، يعلو الدُّخَان أمام وجهي بينما يسكن خاطري ما لمحته في الظلام منذ دقائقَ.. فقد حاولت مَنْطَقةَ الأمر وإيجاد مبرر له لكني لم أجد مفرًّا من اعتباره محض إرهاق وتشويشٍ بصري ناجم عن قلة النوم.

وبينما أستسلم للصمت وأُشعل سيجارة أخرى...وفي الساعة الأخيرة من الليل قُبيل شروق الشمس، بدا وكأنَّ أحدًا ما يخرُج من باب المطبخ صاعدًا السُّلمَ المؤدي للغرف العلوية.

لعله أبي وسيتضح فور صعوده واقترابه... لكن هواجسي عادت للظهور لأنّني لم أرَ أي أحدٍ وإنما اختفى الظلُّ وذاب في الظلام تدريجيًّا وكأنه شبح؟! ظَلِلت أتساءل: ما الذي أصاب عقلي؟.... هل أنا مُجهدٌ بما يكفي لتلقِّي بعض الضلالات البصرية تمامًا كما يحث في أفلام الرعب؟

ومن جديد اتهمتُ نفسي... وأقنعتُها بأنه خِداع بصري بين الظِّلال والأضواء المُنبعثة من الشارع.. تلك أسباب منطقية...ومسكنات ننام معها ونمضي أيامنا أملا في بلوغ شمس اليوم التالي فحسب

***

- صباح الخير يا بابا..ما صحتنيش ليه أنا أو ماما نِعملّك القهوة؟

قالتها (مريم) بينما تجلس على الأريكة الموجودة في البلكونة موجِّهة حديثها لأبي فقط وكأنِّي غير موجود.

لا بأس لقد اعتدت منها على ذلك خاصة إذا تعلّق الأمر بأبي الذي تُحبه فوق مستوى الحب الطبيعي بدرجات.

- صباح النور يا حبيبتي..ليه! هو أنا كسول زيكم ... أنا صحيت من بدري أنا وعُمدة وشربنا قهوتنا وقرينا الجرايد ... إنما انتوا عُبَال ما تصحوا وتحضّروا الفِطار فيها سنة.

- هههههه اااه فِعلا مش عارفة الواحد صاحي كسلان ليه كِده ومُرهق كأنه كان في خناقة وهو نايم!!

فكان ردي الساخر عليها:

- يا بنتي اعملي اللحمية بقَى وارحمِي جوزك ... هيطفش مِنّك!!

- شايف يا بابا عماد وغلاسته..... إنت رزل وهزارك سخيف!!

ضحك أبي وبادرها:

- صحيح يا مريم...إنتي وشك بجد مُرهق ليه كده؟!

- مش عارفة ... ما نمتش كويس وطول الليل أتقلِّب واحلم بكوابيس ... لأ والغريب إن (نادر) صحي خايف في نص الليل وبيقولي احضنيني يا ماما أنا حلمت بكابوس !!

- أبي: يا ساتر ليه كده!

- مريم: مش عارفة.. حاسة بحاجة غريبة المرة دي.

- أنا: حاجة إيه؟ ... مالك يا بنتي؟!

- مريم: الشاليه يا عماد ... مستغرباه أوي المرة دي...كنت بانبسط أوي لما بنيجي ونقعد بالأسبوعين والتلاتة وكنت بَحُط راسي ع المخدة بنام علطول ... دلوقت بقى فيه حاجة غريبة كده ... مش مرتاحة لما بنام وفيه قلق غريب.

- أبي: إيه اللي بتقوليه ده يا بنتي ... ما توهميش نفسك وخلاص ... إنتي طالعة لامك بتحب تفكر كتير وتقلق نفسها!!

- (مريم): لا يا بابا... ده انتوا الرجالة اللي مكبرين دماغكم بزيادة شوية ... ماهو البيه اللي عندي برضه بيقولي تصبحي على خير ويسافر في ٣ ثواني.

- أنا: على فكرة احنا بنشيل الهم ونفكر برضه بس احنا عمَلِيين أكتر منكم شوية.

كان الحوار ودودًا ومرحًا، لا يُحمّل الأمور أكثر مما تحتمل، ولكن لم يمنع ذلك أبي من التفكير فيما قيل، وخاصةً أنها ليست المرة الأولى التي يسمع فيها شكوى بأن الشاليه هذا العام مختلف، إذ

حدثته أمي قبل ذلك مرارًا في هذه العطلة الصيفية، بعد مَبيتهم الأول وتنظيفها البيت بمساعدة الخدم.

فروَت له أن ثمة أشياء غريبة ودقيقة تحدُث ليس لها تفسير ولا تَسعها الذاكرة جيدًا، وعلى رأسها طاقم المُلابسات الغريبة المعروف في كل أفلام الرعب مثل اتقاد المصابيح وحدها دون الضغط على الزِّر وسماع الأصوات الهامسة من خلف الستائر وخطوات الأقدام وغير ذلك.

عاد اليوم لطبيعته المُعتادة بعد استيقاظ الجميع ودخل البيت كله بكباره وأطفاله في حالة المرح والبهجة استعدادًا للذهاب للبحر، فالأطفال لا زالت تُكمل إفطارها بالغصب والتعنيف، والآباء يقرءون الصحف مع ارتشاف القهوة، والسيدات مع أمي لا يتوقفن عن الحديث في المطبخ ويُخطِّطن لإعداد ساندوتشات البحر، وأصناف غداء اليوم.

أجواء إيجابية لا توحِي بما يحدُث في الخفاء، وتَصرِفُ الذهن تمامًا عن أي غرائب أو وقائع غير قابلة للتفسير، وفي مثل هذه الأجواء المرحة فإن أمي وابنتها لا تحتاجان مجهودًا ذهنيًّا كبيرًا في إقناع أنفسهما بأن كل ما يُقلقهما هو محض أوهام وأفكار سلبية تلك حجة مُقنعة وشماعة جيدة نُلقي عليها مخاوفنا، وما يثير حفيظتنا دائمًا.

ولكن ماذا لو خرجت تلك الأحاسيس عن حدود كونها وساوس.. وبَدَا في الأُفق ما لا تُخطئه العين أو ينكره عاقل؟!

على شاطئ البحر، انقسم الأطفال إلى مجموعةٍ تلعب في الرمال وتبني بيوتًا وتصنع حُفرًا وجبالًا، وأخرى في البحر لا تبرحه حتى تغرب الشمس، أولئك الذين تتسلَّخ أكتافهم وتظل أمهاتهم تدهن لهم ظهورهم المُلتهبة بالمرطبات والكريمات لمدة شهرين بعد العودة من السفر.

أما الرجال الثلاثة، أنا وأبي و(طارق) فقد جلسنا بالجرائد والمجلات والقصص، نتجاذب أطراف الحديث حول نهائي الكأس المُرتقب بين الأهلي والمصري البورسعيدي ونتبادل الضحكات والنكات قبل أن تعود السيدات الثلاثة من الفيلا القريبة جدًّا من البحر.

وبمجرد وصولهن بحقائب السندوتشات ابتهج الأطفال ونحن الرجال أيضًا حيث كان الجوع يعصف بالجميع، والكل يترقَّب مجيء السيدات ليأخذ الحديث مسارًا آخرَ أكثر بهجة من جلسة ذكورية صِرْف.

من جديد يستيقظ شيطاني مثيرًا قلقي حين حدَث موقف لا زلتُ عاجزًا عن تفسيره. خاصة أن حديث مريم لا زال يتردد صداه في ذهني، فقد لمَحت على مسافة شِبه بعيدة بعض الصِّبية بالتعاون مع أقاربهم يلعبون لُعبة الدفن في الرمال لواحد منهم بعدما وضَع جسده كاملًا ما عدا رأسه في حُفرة عميقة تُجاه البحر وراحوا يمرحون ويُلقون عليه المياه المالحة فوق رأسه ويضحكون وهو يمازحهم..وأنا أراقب الموقف باسترخاء ولا مبالاة.

وفجأة.. وفي التفاتة بطيئة ولكنها مُخيفة أدار الشاب المدفون رأسه لينظر لي نظرة صارمة ممزوجة بابتسامة صفراء لم أفهم معناها وكأنه يُعرفني أو يريد إيصال رسالة معينة، بادلته النظر في محاولة إدراك حقيقة ما يحدث، لعَلِّي أتخيَّل فحسب، لكن ما شعَرت به كان حقيقيًّا لدرجة جعلتني أرغب في النهوض والذهاب إليه لفهم الأمر، ولكن ما إن شرَعت في ذلك حتى

ذابت تلك المخاوف كالعادة بشكل مؤقت في طيات أول حديث للعائلة ووسط ضحكات وحكايات استمرت حتى غروب الشمس.

- ها؟.. الغَدَا إيه النهارده يا ستات؟

قالها كبير العائلة بسعادة غامرة، ودفء وحنين يملأ صوته.

- عاملين لكم رز بالخلطة والكِبَد والقوانص وصينية جلاش باللحمة المفرومة وتورلي في الفرن.

الجميع يصفِّق ويُهلل إلا أنا... ويبدءون في جمع أشيائهم وحمل أمتعتهم، وأخذ صغارهم تحت الدُّش لتنظيفهم من رمال العجمي البيضاء شديدة الالتصاق بالجلد.

لماذا تشوب الحياة مواقف تتسبَّب في حدوث الغرائب؟ بل وتعطيها الفرصة للتجلِّي والظهور والخروج إلى مسرح الأحداث إن لزم الأمر، فيصبح هاجس الأمس هو لاعب اليوم، ولا فِكاك من

مواجهته والاعتراف به.

في المساء.. كانت الخُطة العائلية المُتفق عليها تسمح بهذا النوع من ظهور الغرائب، حين اتفق الكبار على الذهاب إلى الإسكندرية لقضاء السهرة هناك للاستفادة من التذاكر المجانية التي حَصُلتُ عليها من مصلحتي الحكومية التي كنت أعمل بها لحضور مسرحية (ريا وسكينة) على مسرح السلام في أول عروضها بالإسكندرية وبحضور شادية وأحمد بدير شخصيًّا للعرض.

مشوار الإسكندرية ليس بالبعيد ولا القريب، هي عدة كيلو مترات من العجمي، ولكن قضاء سهرة خارج البيت في أوضاعه المريبة هذه، وترك الأطفال وحدهم معتمدين على رقابة الخادمتين هو الأمر الغريب الذي سيكشف ما استتر واختبأ من أقدارٍ تحوم حول أهل البيت.

انطلقت السيارات تحمل الستة الكبار مبتعدة عن الفيلا ثم شاطئ درويش ثم العجمي وبقى الصغار الأربعة أمام التلفزيون تحت رقابة الخادمتين (فاطمة) خادمة أمي الحاجة (لطيفة)، و(نور) خادمة (مريم) أختي.

وما حدث...سأرويه من واقِع ما رواه الأطفال والخادمتين أنفسهم عن تلك اللحظات العصيبة

أما (هاني) فهو ابني الكبير ومعه ابنتي (سمر)، في مقابل (نشوى) و(نادر) أولاد مريم.

ولم يكن (هاني) يكبرهم بالعمر فقط (٨ سنوات)، بل كان يفوقهم في التفكير والجرأة وحب المغامرة لدرجة التهوُّر وتلقي التبويخ والضرب مني ومن أمه بسبب مغامراته الدائمة، وشغفه بتجربة كل شيء، حتى ما سيُلحِق به الخطر أو يودِي به إلى المَهالك.

(هاني) بفرط حركته ونشاطه الزائد، وحبِّه للمغامرة يشكِّل دائمًا مِنطقة خلاف بيني وبين (شيرين) زوجتي، حيث دائمًا ما نختلف من حيث السؤال: أيٌّ منا أفسده وكان المسئول عن عدم تربيته؟!! ... وكلانا لا يتورّع عن ضربه وإهانته..المؤلم أنني عرفت فيما بعد أن (هاني) ابني لم يكن عديمًا للتربية أو يستحق العقاب كنا نُعاقبه مع كل خطأ، حتى أنه يذكر جيدًا إحدى المرات التي سبَّبت له ألمًا نفسيًّا، حين قُمت مع أمه بحبسه بعد أن سد الحوض بسدادة وملأه بالمياه وراح يلعب مع أخته، فكان عقابه أن يجلس في غرفته بلا طعام ولا شراب منذ العصر حتى جُنح الليل، وهو يستمع لضحكاتنا وسمرنا أمام التلفزيون على وجبة العشاء من خلف الباب!! ولماذا لم أُعاقب أخته التي كانت تشاركه الخطأ ذاته.

العجيب أني أذكر - بمنتهى الألم - أن هذا العقاب استمر حتى حان موعد النوم ودخلنا لننام وتركناه سهوًا وحده في الغرفة. التي لم يخرج منها سوى في الصباح مع استيقاظ أمه لتُعدَّ القهوة لنفسها!!

دائما ما أستدعي من ذكرياتي مع (شيرين) زوجتي ما يُشينها ويُشعرني بأنها لم تكن زوجة مثالية. كنت على خلاف مستمر وعدم تفاهم معها في كل تفاصيل الحياة، فضلًا عن السبب الرئيس في خلافنا وهو تمردها على حياتنا المادية، وعلى وظيفتي الحكومية المتواضعة، وانعدام طموحي

وخنوعي وقبولي بأي وضع - وفقًا لرأيها طبعًا - حتى نصيبي كوَلَدٍ وحيد من إرث والدي لا ولم أجرؤ على طلبه يومًا ما...لا أدري لماذا؟!

وفي هذا الأمر كنت ألتمس العذر لزوجتي. فوالدي كابتن طيار قديم صنع ثروة كبيرة من عمله في أوروبا، وامتلاكه لمصنع جلودٍ رابح بخلاف العديد من العقارات المترامية، بين القاهرة والإسكندرية، ولا زال يعتزُّ بقوته وعنفوانه ويرفض النقاش في مثل هذه الأمور، ويرددها أكثر من مرة:

(مش عايز حد يكلمني في الموضوع ده...لما ابقي أموت ابقوا قسموا التِّركة !!)

بالعودة إلى فيلا العجمي وما يحدث فيها...

فالآن ... نحن أمام إحدي الفرص الذهبية السانحة لمغامرة جديدة يخوضها (هاني) ابني وحده، حيث أدرك ذلك منذ اللحظة الأولى التي سمع فيها الكبار يُخططون للخروج وتركهم، فلم يفعل مثل الثلاثة الباقين، أو كما هو مُعتاد ومتوقَّع من الأطفال في مثل هذه المواقف من تشبُّث بالكبار، والبكاء والانهيار، بل تلقَّي الأمر بهدوء البالغين وتؤدةِ الراشدين وخُبث الأطفال أيضًا.

وحشتني يا هاني!!.... وحشتني أوي يابني!!

بدأ (هاني) يدرك أنه الآن قائد المرحلة.

- هاني: باقولكم إيه؟..إحنا هنفضل نتفرج كده ع التلفزيون؟! ... ما تيجوا نخرج زييهم ... اشمعنى هُمّا يعني؟!

- سمر: لا يا هاني؟! ... مش هينفع!!

- هاني: ليه مش هينفع؟

- سمر: إنت أكيد عايز بابا وماما يضربوك لما ييجوا ... ده انت لسه مضروب امبارح.

- هاني: إيه المشكلة يعني لما نخرج ... إحنا نلعب بالبلي قُدام البيت مع (تامر) ابن الجيران ... هو مستنينا أصلًا

- نشوى: لا يا هاني ... مش هنلعب معاه ... ده صاحبك انت، إحنا مالناش دعوة ... وبعدين نسيت إنه غَلِّس علينا امبارح واتريق على نادر اخويا!

- هاني: يا جماعة ما تخافوش ... أولًا ماحدش هيعرف إننا خرَجنا نلعب ... لأنهم راحوا اسكندرية وبيتفرجوا على مسرحية.

- سمر: مين اللي قاللك كده ... لا ... ماما وبابا ماراحوش مسرحية ... .راحوا يشتروا حاجات.

- هاني: براحتك يا عبيطة ... إنتي مصدقة الكلام ده أنا سمعتهم بيتفقوا إنهم يخبُّوا علينا علشان ما نشبطش فيهم.

نادر: طب أنا عايز ماما!!

هاني: بطّل يابني شُغل العيال ده ... إوعى تعيط؟! ... .وبعدين أنا هاخدك معايا واحط البلي بتاعي على بتاعك ونروح نلاعب (تامر) وأصحابه إيه رأيك؟!

جاءه الرد من صوت نسائي غليظ:

- لا يا هاني ... مفيش خروج ... لا انت ولا هو ولا حد مِنكم هيعتِّب بره البيت.. أنا مش ناقصة مصايب ... اترزعوا هنا قدام التلفزيون وبس.

بعناد الطفولة رد هاني على الدادا (فاطمة):

- انتي مالك انتي؟! ... لا هاخرج ... غصب عنك هاخرج.

- فاطمة: طب ورِّيني هتخرج ازاي ... ولما تيجي امك والله لأقولها.

نهضت (فاطمة) من مكانها وقررت عقاب جميع الأطفال خوفًا من نوايا هاني، فأغلقت التلفزيون وأغلقت أبواب البلكونة، ونهرتهم وأمرتهم بالدخول للعب في الداخل:

- يالَّا مش عايزة عياط ... كله يسمع الكلام!!

- سمر: طب يا دادا إحنا مالنا، خلِّي التلفزيون والنبي؟!!

- الدادا فاطمة: لا مفيش تلفزيون ... اسمعي الكلام يا سمر ... هاني دَه أبوه هيعرف شُغله معاه لما ييجي ... خشوا العبوا جوّه بالمكعبات أو السلم والتعبان.

ثم نظرت لزميلتها (نور) وتمتمت:

- أنا مش ناقصة مصايب ... الواد ده جن مصور ... كلها كام ساعة نحبسهم جوه ويكونوا جم ... أنا عارفة إيه الروقان اللي هما فيه ده ... قال مسرحية قال ... طب كانوا خدونا معاهم.

تبادلت الخادمتان الضحك والحوار وأغلقتا كل الأبواب المؤدية لخارج الفيلا.

وبعد ربع ساعة، اختفى هاني من أمام ناظريها حين انشغلت بالحديث مع زميلتها، فقامت مفزوعة تنادي عليه، حتى وجدته في الطابق العلوي وحده في الظلام يعبث بمقتنيات جده في غرفته.

- بتعمل إيه عندك يا هاني ... يا نهارك اسود!! ... إنت بتكلم حد في التليفون ... شكلك مش ناوي تعدي الليلة دي على خير!!

- هاني (ضاحكا): مفيش يا دادا ... مش باعمل حاجة ... مش باكلم حد.

- الدادا فاطمة: طب سيب السماعة وبطَّل لِعب في التليفون ... واخرج من أوضة جِدك يالَّا

- هاني: طب والنبي ثواني بس ... ثواني

- الدادا فاطمة: لا ده انت شكلك عايز تِضرِب.

اقتربت الدادا من هاني لتخرجه بعنف، فأشار بيده لها أن انتظري، وكأنه يُحدِّث أحدًا ما علي الهاتف.

- الدادا فاطمة: بتكلم مين يا ولد عرفني!!

- هاني (ضاحكا): دي الساعة.

- الدادا فاطمة: ساعة إيه؟

- هاني: خُدي كده اسمعي ... استني هاطلبهالك م الأول.

ضرب (هاني) على رقم ١٥٠ ووضع السماعة على أذن (الدادا فاطمة) فاستمعت لصوت عذب نقي ينطق بالفصحى قائلًا:

الساعة الثامنة وخمسة وعشرون دقيقة وثلاثين ثانية.

ابتسمت (الدادا) وانبهرت، وطلبت من هاني أن يُعيدها، فكرر الاتصال فطلبت الثالثة والرابعة وطفقا يضحكان والسماعة مرفوعة، حتى جاء الرد الصارم لمذيعة الساعة في رسالتها المسجلة:

من فضلك ضع السماعة!!

فضحكت (فاطمة) وتضاءلت ابتسامة (هاني) وكأن شيئًا من الخوف دبَّ في قلبه، لماذا غضبت مذيعة الساعة ونهرتهم حين بالغوا في الضحك، وكأنها تُجالسهم وتشعر بهم.

- الدادا فاطمة: طب يالا كفاية بقى وانزل تحت العب مع اخواتك.

- هاني: والنبي يا دادا ... والنبي خليني هنا شوية ... مش هالعب في حاجة ... التليفون بس ... مش اللعبة حلوة وعجبتك؟!

- الدادا فاطمة: هي عجبتني الصراحة ... طيب اقعد بس اوعى تلعب في حاجة جدك.

نزلت (فاطمة) لتحكي لـ (نور) عن مكالمة الساعة، ودار في خلدها وسواس أن ترسل بقية الأطفال لهاني ليستمعوا إلى السيدة التي تُخبرك بالساعة كل ثانية، وتتخلص من صُراخهم وشكواهم ومشاوراتهم، وأشارت لـ (نور) بغمزة عين.

- (فاطمة): تعالي بقى يا بت نعمللنا كوبايتين شاي ونطلع نشوف الفيلم العربي بروقان بلا دوشة ... ده هيقعدوا فوق مش هينزلوا ... والتانيين لسه بدري على ما يجوا.

صَعد الأطفال الثلاثة بشغف وبراءة للحاق بهاني، والاستماع لهذه الخدمة التي تبدو كلُعبة مضحكة..

ولكن... هل تجيب مذيعة الساعة بنفس نبرة الصوت كل مكالمة مهما زاد عددها؟! هل هي إجابات أوتوماتيكية جاهزة حقًّا؟!

أم أن ثَمةَ خروج عن النص المسجل يمكن أن يحدث؟!

في الصف الثالث من مقاعد مسرح السلام الصيفي كان يجلس والدي الكابتن ضياء وعائلته، والجميع مستمتع ويضحك من أداء عبد المنعم مدبولي وهو يكرِّر ذات الإيفيه دون مَلل أو افتعالٍ، قائلًا: (شيلوا الميتين اللي تحت) وكذلك كان بقية الجمهور لا يَمل من الضَّحِك المتواصل والاستمتاع بالأجواء المسرحية المهيبة.

أما أنا فبدت عليّ علامات الثقة والفخر خاصة أمام زوجتي بأنني السبب في هذه السهرة، كما كانت جلستها وملامحها هي أيضًا مُنتشية للسبب ذاته.

لكني تذكرت حديث مريم مرة أخرى فنظرت لها نظرة خاطفة لأجدها شاردة في عالمها الخاص ولم تكن في أفضل حال، تضحك ضحكًا زائفًا، وليت الحال ظل على ماهو عليه...نستطيع الآن أن نقول: إن ما مضى في كِفَّة وما هو آتٍ في كفة أخرى حتى أن يديَّ الآن ترتجفان وأنا أقص عليكم واصفًا ما حدَث، وهو ما أعتبره حتى هذه اللحظة لغزًا كبيرًا.

لقد شعرت بأن صوت الصخب العام يهدأ وينخفض، وأسمع صوت أنفاسي الداخلية وكأني أتعرض للصمم، وحين بدأت أحكُّ أذناي راعني ما رأيتُه ماثلًا أمامي،إنه ابني (هاني) يسير ببطء أمام الصف الأول من الحاضرين، فدقَّقت وفركت عيناي حتى أتحقَّق مما أرى، وإذ به هاني بالفِعل وجهه شاحب مائل للزرقة جاحظ العينين، ورقبته مضرجة بالدماء الحارة النافرة بينما ينظر لي وحدي بتركيز شديدٍ.

ظل ينزف من فَمه...وعيناه تزدادان جحوظًا...ينظر لي وحدي ولا يراه سواي تقريبًا لدرجة جعلتني أشكك في إصابتي بالفصام أو في قُدرتي على التفرقة بين حلم وحقيقة، تسمَّرت في مكاني، وتصببتُ عرقًا وشعَرت بضيق في التنفس، وتشبثت بمقعدي ثم بدأت ضربات قلبي تزداد حتى كاد أن ينخلع خوفًا عليه، حين حاولت أن أصرخ وأناديه ولكن صوتي مُتحشرج لا يخرج، والغريب أن العرض كان مستمرًّا من حولي والفنانون يؤدون دورهم والجمهور يصفق ويضحك، فتأكدت أنهم لا يرون ما أرى، حتى مر (هاني) أمام الصفوف وخرج من بابٍ جانبي

وفجأة عاد لي صوتي ونهَضت من مكاني وصرخت:

هااني.... هاااااني.... هاني خرج م الباب دَه!!

بالطبع حدث ما توقَّعت وصار كل من حولي ينظرون لي بدهشة، وأوّلهم زوجتي ما بها إلا أن قالت:

- عماد ... مالك؟! ... جرالك إيه؟ ... في حاجة؟!

استفقت... واستجمعت أنفاسي... وقلت لزوجتي:

- لا مفيش ... مفيش حاجة.. هاطلع بره شوية أشم هوا واشرب سيجارة.

نظر الجميع لي بدهشة والأب والأم بشَفقة وخوف قائلين:
- طب ما تبعدش وطمنَّا والنبي !!
- شيرين: أنا قايمة معاه يا عمي..ما تقلقوش ... خليكوا يا جماعة !!
خرج الاثنان من بين الجمهور.
- إيه يا عماد مالك؟
- مفيش..أنا كويس
- كويس ازاي بس...ده انت صرخت وقلت هاني؟!
- أنا قلت هاني؟!
- آه..ما تقلقنيش قولي فيه؟!
- مفيش حاجة أنا نمت...آه نمت وغفلت شوية فحلمت حلم مُزعج كده... لكن هاروق دلوقت ... ما تحمليش هم ... يالّا خُشي انتي علشان بابا وماما ما يقلقوش.... هاشرب سيجارة وأحصَّلك

أدركت الآن أن ثمة شيء غريب وغامض يلتف حول أيامنا الراهنة، ويتربص بنا أو ربما كان المكان يحمل من اللعنات ما يكفي لحدوث تلك الأحاسيس الغريبة، أو أن الاحتمال الثالث الذي بدأ فعليًّا يعصِف بي أن أكون مُصابا بأحد الأمراض العصبية الذهانية فتجسد لي ضلالات وأوهام أراها عيانًا.

مكثت لدقائق أنفث دخان سيجارتي بعنف، وأشعل تلوها الأخرى حتى قطع شرودي رغبتي الملحة في دخول الحمام لدرجة أن انفلات أعصابي أخرج جهازي البولي عن السيطرة واكتشفت أنني بللت ساقيَّ وبعضًا من ملابسي ايضا

دخلت الحمام وكعادة كل مرتاديه أن ينظروا للمرآة وهم يغسلون أيديهم، فكانت لحظات الفزع المنتظرة حين لمحت خلفي في المرآة فتاة مشوهة ترفع مِعصمها المقطوع من الوريد وتنفر منه الدماء وفور أن التفت اختفت سريعًا... ولكني أدركت بما أنها فتاة ونحن في حمام رجال إذن فهي محض تهيؤات وضلالات.

ولكن مَن تكون هذه الفتاة؟ ولماذا تشير لي بمعصمها المضرج بالدماء...أشعُر مما استطعت التقاطه أني شاهدتها من قبل وكأني أعرفها جيدًا من بعض ملامحها..نعم كأني رأيتها من قبل

الآن...فكرت أنه لا وقت ولا رفاهية للبقاء وحيدًا، عليَّ أن أحتمي بالزحام والعودة للمسرحية الكوميدية وصوت ضحكات وتصفيق الجمهور لعلي أخرج من هذه الحالة!! وبالفعل عدت إلى مقعدي وجلست في سلام بعدما أقنعت نفسي بما قلته لمن حولي أنني غفلت ونمت لدقيقة غبت فيها عن وعيي.

انتهى العرض.. وعلى الفور قامت أمي واتجهت نحوي لتطمئن عليّ وصارت تربت على كتفي، ولكني تظاهرت بالثبات ورسمت ابتسامة مُصطنعة على وجهي، وطمأنت الجميع.

استقل الجميع سياراتهم وبدءوا طريق العودة للعجمي، ولم أجدني أملك إلا التزام الصمت وأنا أقود سيارتي (اللادا) التي لم تحظ يومًا بإعجاب زوجتي (شيرين).

حاولت معي كي أتكلم ولكني لم أرد بكلمة، مما أثار غضبها وصارت تتمتم بعابرات تذمر وضيق وقالتها واضحة:

- أنا من زمان حاسة إنك محتاج تروح لدكتور مخ وأعصاب كويس.... ليه مأجل الموضوع ده؟!...أنا شايفة إن جِه وقته.

ازداد ضيقي ولكني تمالكتُ أعصابي وسيطرت على غضبي، وفتحت زجاج النافذة أكثر ليسمح بدخول تيار هواء نقي يثير بعض الضوضاء فلا أستمع لحديثها السخيف.

وماهي إلا دقائق وكنت على موعد جديد مع الإثارة والهلع والتِّيه.

فرغم سرعة السيارة على الطريق إلا أن الظهور الثاني لولدي (هاني) مضرجًا بالدماء هو على حافة الطريق وحده، كان كضربةٍ موجعة وصادمة أصابتني بعدم الاتزان فانحرف مني إطار القيادة وكادت السيارة أن تنقلب بنا.

طبعًا لم تمهلني زوجتي حتى أُبرر ما حدَث... بل صارت تصرخ وتردد:

- لا ده انت حالتك بقت ما يتسكتش عليها... انت اتجننت يا عماد؟!!

كانت سيارة (طارق) وأبي قد سبقتنا فحمدت الله... فلم يعد لدى طاقة لتبرير ما يحدُث، فضلًا عن أنه لن يُصدقني أحد فيما رأيت، فانطلقت مسرعًا وكان كل همي هو الاطمئنان على (هاني)

وبصراحة لم يكن لدي أية قدرة أو طاقة كرد فعل لما رأيته جالسًا طوال الطريق في المقعد الخلفي للسيارة ولم أستطع النطق بكلمة كي لا تتهمني زوجتي بالجنون الصريح..فظللت مضطرًّا للنظر لها بدون كلام.

بينما تنظر إليّ في المرآة هذه السيدة العجوز مخيفة الطلة والمتلحفة بشالٍ أسود يغطي نصف وجهها، تنظر لي نظرات ثابتة تثيرُ الهلع كأنها تعرفني وتريدني وحدي كي تفتك بي، ومجددًا شعرت أيضًا أني رأيتها من قبل وأن ملامح وجهها ليست بغريبة عليَّ.

ظلت السيدة تنظر لي بتركيز وزوجتي تثرثر فيما لا أفهمه طوال الطريق، كلما أدرت وجهي وصرفت نظري كي تختفي عدت لرؤية نظرتها القاسية والمخيفة.

***

في البيت.. اجتمع الأطفال الأربعة حول (التليفون) وضحكاتهم تتعالى بعد كل مكالمة للساعة، وهاني يمارس دوره كزعيم للأحفاد وكبيرهم الذي علَّمهم الشقاوة، وهو بنفسه الذي يُجري المكالمة ثم يضع السماعة على أذن كل طفل منهم مرة بحسب الدور، وخاصة حين تزيد مدة رفع السماعة فتخاطبهم مذيعة الساعة بلهجة صارمة:

- من فضلك ضع السماعة.

فيضحكون شاعرين أنهم قد أثاروا حَنَقها وحفيظتها في خيالهم، ولم يكن يعرف أحدهم أن شيئًا

من هذا، قد خرج من فوره إلى عالم الحقيقة، وثمة غضب سينبعث من المكالمة لن يوقِف هديره أحد بعد الآن..

الآن سيخرج..

الآن سيحطم الأسوار..

الآن عرف أسطول الشر طريقه عبر تلك المكالمة.

فيا ويل من حضر اللعبة.. ويا ويل من غاب عنها !!

جاء الدور، من جديد على هاني فطلب الرقم، وانتظر الرد فكانت الصاعقة حين جاءه من نفس المذيعة ولكن بصوت متهدِّج.. غاضبٍ..هامس كفحيح الأفعى:

- هاني.. حبيبي.. ما تيجي نلعب !!

العبث بالحقائق

الحقائق والثوابت لا تبقى كما هي في عيون الخائفين.. حتى الأمور المطلقة تُصبح نِسبية حين الهلع، فـ ١ + ١ لا تساوي بالضرورة ٢ والضِّد لا يعني عدم وجود نقيضه، بل تختلط الأمور وينفرط عِقدها، وهذا ما يحدث حِيال الظواهر غير الطبيعية والغريبة.

فالأهرامات مثلًا أثر شامخ يُصيب زوارها بالبهجة تلك حقيقة ثابتة، ولكن هل يَحول ذلك دون وقوع أحدهم فريسة للعنة الفراعنة داخل أقبيته ودهاليزه ومومياواته؟!

ليست هذه سفسطة بقَدر ما هي محاولة لفهم الموقف الراهن واستجلابٍ حاولتُ بلوغ أي تفسير علمي يطفئ نار حيرتي وشتاتي جرَّاء ما سمعناه من الأطفال ورأيناه فور وصولِنا للبيت.

وفي هذه اللحظة فقط تذكَّرت كلمات أختي أن ثَمة لعنة تصاحبنا هذه الأيام وفي هذا الصيف خصيصًا!!

الساعة الناطقة... وما أدراكم ما الساعة الناطقة؟! من أية دروب شيطانية جاءتنا هذه الرياح السامة عبر هذه المكالمة التي تبدو تافهة...ولكنها صارت وفقًا لما سأرويه لكم إحدى ممرات الشر الأسود وواحدة من بوابات الظلام.

الساعة الناطقة...عرفتها وسمعت عنها باعتبارها تتويج لرحلة الإذاعية الكبيرة السيدة تُماضر توفيق إلى السويد عام ١٩٥١، فهي من أهم محطات حياتها المَهنية حيث انتدبتها الإذاعة المصرية لتسجيل جميع مكالمات الساعة الناطقة، وأثار صوتُها الإذاعي العذب إعجاب الناس...ولكن ثمة ما يُخيف الأطفال في نبرات ذلك الصوت وبهذا الأداء!!

هكذا كان لزامًا علينا جميعًا أن نتعامل مع الأمر، بثباتٍ ووعي خاصة حين وجدنا الأطفال لسيوا كما تركناهم، وزاد خوف الجميع حين نطق الصغير (نادر) وأقلهم تأثرًا بما حدَث، وأخبرنا بأن الخوف والهلع انتاب الكل بعد لُعبة الساعة على التليفون، خاصة حين حدَّثت (هاني) عن عوالم

ساحرة مليئة بالألعاب والملاهي والحلوى والمرح، وطلبت منه الاستعداد للسفر صَوبَ هذا العالم

وهو الأمر الذي أثار ضحك الكبار في بادئ الأمر ولم يصدقوه، ثم بدءوا يشعرون بأن هناك ما يثير الرِّيبة ويدعو للقلق، فالمناخ العام ليس مريحًا بما يكفي، كما أن حوار (مريم) مع أبي في الصباح بدأ يختمر في ذهن الأخير، ويشعره بأن المكان لم يعُدْ مثلما اعتادوا عليه كل عام.

لذلك بات الكل مخطوفًا ذهنيًّا، ولكن بدرجات متفاوتة، وبقَيت عيناي مسلطتين على ابني (هاني) خائفًا عليه، ولكني غير قادر على البوح بمخاوفي تلك حتى أمه أُصيبت بالوجوم التام بعد أن سمعت ما حكاه (هاني) و(نادر) عن الساعة الناطقة ووعودها لهما بما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت.

وكل ما قالته وهي تنهر (هاني):

انت اتجننت يا ولد....خلاص قلتها وضحكنا...ساعة إيه اللي اتكلمت معاها... إنت أهبل؟!!... بطَّل الهَبَل دَه علشان ما تضحكش ولاد عمتك عليك؟!!

نام الجميع رغمًا عنهم ... لكنه نوم كالسحاب مساحة بلا كثافة ولا ثِقَل، وأوّلهم أنا... وكعادتي استفقت بعد ساعة واحدة وخرجت لإشعال سيجارة أمام نافذة الصالة في الدور السفلي.

وماهي إلا دقائق حتى لمحت أبي خارجًا من غُرفته، متسللًا حتى يضمن ألَّا يستيقظ أحد، ومضى ذاهبًا إلى حيث مكمن قلقه وحيرته.

أطفأت سيجارتي فورًا قبل أن يراني... وصعِدت لأطمئن عليه.

- مساء الخير يا بابا.

- أهلا يا عماد...مساء إيه بقَى... قول صباح!

- على رأيك..أنا والله لاقيتني مش جاي لي نوم.

- ومين سِمعك...أنا كمان والله... إنت إيه رأيك في اللي سمعناه ده؟

تظاهرت بعَدم فَهمي لمراده، وقلت:

- اللي هو إيه يا بابا؟

- الكلام اللي العيال حكوه ده.

- اااه... الكلام الأهبل اللي هاني ونادر قالوه ده؟!!...يا بابا ده كلام؟!!... ده كلام عيال!!

لا أعرف هل كنت أُطمئن نفسي أم أطمئنه حين بينت استخفافي بما قال (هاني) وأنا أكثر المكترثين به!

- مش عارف يا عماد.... اللي مطمني إن البِت فاطمة والبِت نور بيكدبوهم وبيقولوا إنهم كانوا قاعدين بيضحكوا.

- إيه يا بابا... غريبة أوي إن موضوع زي ده يشغلك...ده شوية عيال وبيلعبوا.... وهاني ابني فشّار وأنا عارفه.

- طيب...ماشي.

سكت والدي بُرهة وهو يضحك بغير اقتناع... ثم أردف:

- طب باقوللك إيه...ما تيجي نطلب الساعة كده ونشوف.

- ساعة إيه يا بابا اللي نطلبها؟

- مكالمة الساعة.

- ها؟!...مااااشي...اطلبها يا بابا.

قام الجَد من مكانه كالطفل الذي جاءه الإذن، واعتدل على مكتبه بجانب الهاتف الضخم الأسود بقُرصه النحاسي الدائري الكبير، وظل ينظر له مليًّا، ثم أمسك السماعة بتُؤدةٍ ورفعها إلى أذنيه، ومدّ يده الأخرى لكي يطلب الرقم الذي شغل البال وأذهب النوم من عينيه، وبالفعل طلبه وتنهَّد لانتظار الرد، فجاءه مباشرًا وبصوت المذيعة المعروف:

الساعة ... الثالثة صباحًا وعشرون دقيقة وثلاثة وخمسون ثانية.

فابتسمتُ له وقلت:

- أهو...شفت...يا بابا دي آخر حاجة تشغِل بالنا اللي يقولوه العيال... تلاقيهم بس اتغاظوا إن سبناهم...بكره ناخدهم ملاهي المعمورة بإذن الله.

- معاك حق يا ابني...ما كانش لازم نسيبهم...يالَّا اللي حصل.

- يالَّا... أسيبك أنا بقَى وأخش أنام.

- ماشي يا حبيبي...اتكل انت أنا لسه هابص على حاجتي ليكون العيال لِعبوا فيها.

- ماشي يا حاج...تصبح على خير.

خرجت ثم انحرفت إلى جانب باب الغرفة مُتنصِّتًا عليه لأراه يفعل ما توقعتُه...لقد عاود أبي الاتصال بالساعة مرة أخرى وردت عليه بصوت سمعته جيدًا من مكاني، فأغلق الخط ثم عاود الاتصال فجاء الرد مكررًا فقط بتغيير الثواني، ثم أعاد فِعلته أكثر من مرة، والرد المسجل يتوالى بشكل طبيعي.

آآآآه...لا أنكر أنني أيضًا تنفَّست الصُّعَداء وبدأتُ أقتنع بأنه حقًّا لعب عيال، حتى أبي حين رمقت وجهه بدت عليه علامات الراحة والطمأنينة حيث أسند ظهره على مِقعد مكتبه الجلد الوثير، وظل يتأمل التليفون مليًّا.

وكأن حوارًا داخليًّا يدور بينه وبين نفسه يبث الهدوء ويحرِّض على استعادة الأمان،

الآن فقط نهض الكابتن ضياء وتوجَّه بالخطوة الواثقة نحو باب المكتب في طريقه للنوم آمنًا، ولم يَكَد يخرج من الباب حتى رن جرس التليفون.

هذا ما لم يكن في الحُسبان !!

كلانا تسمَّر في مكانه...وارتعد وجه أبي حين رآني أُراقبه ولم أذهب للنوم... لقد خلق الله قشعريرة الجلد لهذه المواقف الصعبة.

ما أطول الخطوات التي سيخطوها أبي الآن نحو الهاتف كي يتعرف على حقيقة المتصِلِ؟!

ثم مَن هذا الذي سيتصل في مثل هذا الوقت؟!

توجّه ببطء وقدماه لا تحملانه نحو الهاتف وفجأة سكت الجرس، ثم عاود الرنين فلم يجد أبي بُدًّا من أن يَمُد يده ويرفع السماعة ويضعها على أُذنه، ويستمع لما يوحَى إليه.

لماذا تقرِّر الأشباح فجأة أن تواجهنا وتعلن عن نفسِها فلا تعطينا حتى فرصة للهروب؟!

تابعوا بقية الحلقات الأسبوع القادم

الحلقة الثانية
الساعة الآن القاتلة

الأهرام مارس ١٩٨٤
ساعات الانهيار

لطالما حاول الدكتور أحمد خالد توفيق إقناعنا بأن شخصية الدكتور رفعت إسماعيل شخصية عادية وطبيعية، ولكن السؤال هو: كيف كان يعيش بعد كلِّ كارثة وأُخرى، كيف تقبَّل أساسًا فكرةَ انفتاح عالمنا على عالم الباراسيكولوجي وما وراء الطبيعة؟! بل كيف رأى الأشباح والتقَى الخوارقَ وأكل بعدَها وشرِب واختلط بالناس وتعامل معهم؟!!

وها أنا بالكاد أُحاول جاهدًا الحفاظ على ما تبقَّى من عقلي فقط كي أموت ولديَّ على الأقل تفسيرٌ واحد لما يحدُث حولي!!

حاول الجميع تناسِي ما حدَث في العجمي، خاصة بعد اليوم الأخير في المصيف الذي كان يومًا مؤلمًا حين قضى الكل ساعاته يحاولون فَهم ما حدَث للكابتن ضياء، وتسبَّب في حالة صمت ووجوم تامٍّ وكأنه فقَد الكلام، مما جعل أمي السيدة لطيفة تنخرِط في نوبات بكاءٍ متواصلة، وتتعجب من تسارع الأحداث الغريبة.

(ضياء...يا ضياء...اعمل حسابك... مافاضلش كتير)

هذه العبارة لم تفارق ذهن أبي...فهي الكلمات التي سمِعها في مكالمة الساعة، وحكاها لي فلا زالت تتردد على ذهنينَا خاصة أنها كانت بصوت المذيعة نفسها، الأمر الذي أصاب أبي بالهلع.. ولم يعُدْ يعرف طعم النوم وهو ينتظر حدوث مفاجآت غير سارة طوال الوقت.

أما أمي... فدخلت في دوَّامة من الأسئلة التي لا جوابَ لها في محاولة تفسير ما اعتَرى العائلة المرِحة الهادئة فقلَب كل شيء رأسًا على عقِبٍ.

قررت العائلة غلق بيت العجمي فورًا وشد الرحال نحو القاهرة، في محاولة لنسيان ما حدث والدخول في ملهى الحياة اليومي، من عمل واستعداد للموسم الدراسي حيث عادت كل أسرة إلى بيتها، في محاولة منَّا للعودة إلى الحياة الطبيعية.

كانت مخاوفي تأخُذ مسارين... أولُهما (هاني) وما رأيته وما سمِعه من الساعة الناطقة، والثاني أبي وما تلقَّاه من وعيدٍ.

كان (هاني) صامتًا طوال الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية لا يتكلم على غير عادته، مما أثار دهشة أمِّه، وتسرب لها القلق خاصة حين وجدَته بعد ساعات من عودتنا في غرفته شاخصًا ينظر للمرآة؛ فسألته:

- بتعمل إيه يا هاني ... واقف كده ليه؟ يابني قول حاجة ... انطق ... اتكلِّم !!

نظر إليها هاني في إحباط شديد، دون أن يتكلم وكأنه رجل تجاوزَ الستين من عمره ويحمل من هموم الدنيا ما يُثقل كاهِله.

- عمااااد ... يا عمااااد ... تعالَ من فضلك.. هو انت هتفضل ساكت ع اللي بيحصل ده؟

- أعمل إيه يعني؟! ... أضربه علشان يتكلم!!

- هو انتَ كل حاجة عندك ضَرب ضَرب ... ما بتعرفش تِحل أي مشاكل معاه إلا بالضرب ... هو انت مش قلقان زيي ليه؟! ... هو ده هاني؟! ... ما انت عارف إن ابنك رغَّاي وما بيسكتش ... مش خايف ليكون جراله حاجة؟!

- جراله إيه يعني ماهُو قُدامك أهو كويس ... هاني ... حبيبي ... إنت حاسس بحاجة واجعاك؟!

أشار هاني برأسه نفيًا.

- أهو قالِّك بنفسه أهو ... إنتي عايزة تِقَطّمي فيَّا وخلاص ... هاني يا حبيبي ما تخافش من حاجة ... إنت راجل ... وما تصدقش إن فيه حاجة اسمها عفاريت والهبل ده.

- عفاريت إيه انت كمان ... . إنت يا تبسَّط الموضوع ... يا تخوِّف الولد.

- (بصوت عالٍ وغضب): يعني أعمِلِّك إييه؟!! ... .. باقولِّك إيه اطلعِي من دِماغي ... . ما تقرفينيش.

- ماشي يا عماد ... ماشي براحتك.

الغريب أن (هاني) لم يعبأ بما يسمعه، ودخل فِراشه تحت الغطاء واسترخى جسديًّا وظل ينظر للسقف، في مشهد أثار رُعب أمه، مما اضطرها لأن تتصل بصديقتها بحثًا عن طبيبٍ نفسي متخصِّصٍ في الأطفال كانت تُحدثها عنه مِرارًا لعلاج هيبرة الأطفال ونشاطهم الزائد.

لم أستطع البقاء في هذا الجو المتوتر، دخَلت غرفتي وأغلقت الباب ورائي بعنفٍ وتعمَّدت ترك (شيرين) وحدها تصارع الهواجس والتفكير يعصف بها.

كانت (شيرين) غير مقتنعة بقصة التليفون ومكالمة الساعة ولا تعِي علاقة اللعب في التليفون بما أصابه، فهو أمر يُثير الضَّحك، فماذا يمكن أن يحدث لمجرد سماع لمكالمة مسجلة، لكني أظنها صارت مجبورة على تقبُّل الفكرة حين قررت إجراء مكالمة الساعة بنفسها... ثم داهمت غرفتي مفزوعة وروت لي ماحدث وهي تبكي.

لقد أمسكت السماعة وطلبت الرقم وانتظرت الرد فجاءها طبيعيًّا بصوت مذيعة الساعة، ولم تكتف طبعًا بمكالمة واحدة، بل صار وسواسها يدعوها لتَكرار الاتصال.

حتى حضر من حضَر وكان الرد بنبرة ضاحكة:

- الساعة العاشرة وثلاثون دقيقة وخمسة ثواني... حتى انتي عايزة تلعبي يا شيرين.

على الفور، ألقَت بالسماعة على الأرض من الذعر ووقفت وتراجعت للوراء عدة أمتار عن

الهاتف، وظلت تتنفس بصوتٍ عالٍ وضربات قلبها تتزايد. الآن فهمت شيرين لماذا يصمُتُ هاني...الآن عرفت... ولهذا لم تعد تنتظر منه إجابة عن أسئلتها، بل أخذت تنظر حولها في كل مكان في الشقة، بحثًا عن ذلك الذي يُراقبهم ويعرف أسماءَهم، ويضحك ضحكات شريرة، ولكنها تذكَّرت أولادها فهرعت إليهم، فوجدتهم نائمين.

اقتربت من (هاني) وقبَّلته، فأثار ذعرها حين فتح عينيه فجأةً وكأنه لم يكن نائمًا لقد صارت عيناه صفراوتان مثل مريضِ الكبد المَيئوس من شفائِه.

واستبد القلق بـ «شيرين» أكثر حين اتَّصلتُ بأمي فأخبرتها بأن أبي على حالته، بل يزداد سوءًا، ولا يُكلم أحدًا وعيناه تميلان للصُّفرة، فازداد اضطرابُها.

ظلت التساؤلات تعصِف برأسي ورأسها حتي أنهكتنا وخارت قوانا.

وما زاد الأمر سوءًا أنه حين عادت شيرين لتتفقَّد السمَّاعة التي ألقتها على الأرض فقد وجدتها موضوعة على الهاتف في مكانها، وباب البيت مفتوح على مِصراعيه فاتَّجهت مُسرعة ولحقت بها إلى غرف الأولاد مجددًا لنجد الفتاة في فراشها ولكن (هاني) أبى أن تسير الأمور على ما يُرام. فقد صرخت شيرين صرَخات مدوِّية وراحت تطرُق أبواب الجيران في طريقها لبوابة العمارة بحثًا عن ابنها.

الآن فُسِّرت الرؤية التي شاهدتها في المسرح فها أنا أتسمَّر في مكاني كالمشلول، بينما ظلت (شيرين) تصرُخ في وجهي تارة وتستغيث بالناس في الشارع تارةً أخرى.

كان تجمُّع الجيران واحتشادهم أمام العمارة من حُسن حظ (شيرين) التي خارت قواها وسقطت مغشيًّا عليها فحملوها إلى الشقة في حالة إعياء ولم تستفِق إلا بعد مرور ساعة كاملة، وبمجرد لملمة خيوط الوعي انفجرت في البكاء والصراخ، ولم أحاول أو أستطِع تهدئتها؛ لأنني كنت أسوأ حالًا منها هلعًا على مصير ولدنا المجهول.

اعتاد مشاهدوا أفلام الرعب أو قراء قصصه أن يتلقَوا جرعات تدريجية متصاعدة دراميًّا، أما أن تكون الضرَبات متوالية والجرعة مكثفة إلى هذا الحدِّ فليس ذلك في الحسبان، فضلًا عن كون ذلك حقيقة وليس خيالًا أو أوهامًا. وحتى تُدرك هذه العائلةُ المنكوبة حجمَ ما حدَث وتصل إلى تفسيره سيكونُ هناك ضحايا أمراضٍ نفسية وعصبية تُجْهِز على بقيتهم فاللعنة التي بدأت من فيلا العجمي، انتقلت مع الأسرة وتفرَّقت علي بيوت ثلاثة، لتفتح على كل قاطنيها أبواب الجحيم بلا رحمةٍ، ولا تفرِّق بين كبيرٍ أو صغيرٍ.

لقد حرَّكت لعبة (الساعة الآن) كوامِن سوداء لعالم ظَلامي، خرج من باطن الأرض يصُبُّ لعناته وينثر حمم غضبِه تجاه هذه العائلة، والآن.. سواء فهم الجميع أم لم يفهموا... عليهم أن يواجهوا مزيدًا من الهجمات في لُعبة غير رحيمة تزداد غضبًا كلّما حاول أحدهم التنقيب وراء ما يحدث بمكالمةٍ الرد الآلي للساعة.

فها هي أمي تتلقَّى صدمةً من نوعٍ مختلفٍ حين استيقظت من نومها فلم تجد أبي وتفقَّدت أثرَه في البيت دون جدوى حتى أجبرها صوت الجَلَبة والضوضاء والهَمْهمات والصَّرَخات المنبعثة من الشارع أن تنظُر من البلكونة لتفهم ما يحدث، لتكتشف أن الحادثة المُثارة في الشارع وأمام العمارة بطلها زوجها الكابتن (ضياء).

وأن جثته المُحطمة والغارقة في الدماء هي مركز الاحتشاد والتجمع من كل سكان المنطقة الهادئة في أرقى الأحياء القديمة لمصر الجديدة.

في هذا الوقت أدركت أنني صرت في خطر داهمٍ ومحدِق وأنني أمام ريح عاتية ستقتلعُ الجميع بلا رحمة، ولكني تمنيت فقط أن أفهم ما يجري.

فقط أفهم... لِمَ يحدُث كل هذا، لماذا أفقد ابني وأبي بين عشيةٍ وضُحاها؟!

ماذا حدث فأدخَلَ علينا كل طاقة الشر هذه؟ ومتى؟

اتصل بي أحد جيران أبي وأمي القُدامى ليبلغني الخبر بأن والدي سقط من شُرفة المنزل، فقررت ترك (شيرين) في هذه الحالة بعد أن أبلغتها بالخبر البشع ولم تُحرك ساكنًا أو تنتفض من مكانها.

يبدو أن صدمة خطف (هاني) بلغت لديها ذِروة المفاجآت المزعجة. فلم تعد تكترث بما هو أقل.

قررَّت تركها والتوجُّه مباشرة لإنقاذ أمي واحتواء الموقف في بيتنا.

ولكن الأحوال زادت سوءًا حين عرفنا بأمر أختي مريم أيضًا، والتي لم يكن بيتها أحسن حالًا من سابقيه، حيث ازدادت هواجسها وتوقعاتها السوداوية، وصارت أكثر شرودًا، وبدأ (طارق) يشعر بأنه يعيش مع جُثة حية غريبة الأطوار لا تتحدث ولا تنام ولا تأكل، وكل ذلك خلال ساعات فقط ولم تُفلح محاولاته في استشارة صديقه الطبيب في تفسير سرِّ اصفرارِ عينيها أيضًا، مثل أبي وهاني، وتلك الحالة الكئيبة غير المبررة.

فقرَّر ألَّا يَكِلّ أو يَمَل من محاولات علاجها، حفاظًا على أولاده وقبل أن يهم لاصطحابها للمشفى بادرت بالاتصال بهما لأبلغ (طارق) بخبر انتحار والدي ووصيته ألَّا يُخبرها نظرًا لسوء حالتها النفسية. انهار (طارق) فورَ أن علِمَ بالأمر، وبدَا عليه انهيار عصبي واضح وبكاء هيستيري، وحكا لي عن أحوال أختي غير المريحة، وأنها تغرق وتنساب من يدِه كما أبلغني بأنه سيسلِّم أولاده لعمتهم ليقضوا معها ومع أولادها هذه الأيام الغريبة العصيبة، ثم سيتبعني على بيت أمي ليرى كيف سنتمم جِنازة وعزاء أبي بهدوء دون أن تعرِفَ (مريم)

وبالفعل بدأ (طارق) يستعد للنزول متحجِّجًا أمام زوجته بأي حجة؛ فقام بصُنع فنجان من القهوة ينقذه من صُداع دائم لا ينقطع وراح يرتشفه مع سيجارة في الصالة.

كانت (مريم) تبحث عن ساعتين كاملتين من النومِ دونَ جدوًى، ولا زالت فكرة مكالمة الساعة تؤرِّق بالها، إلى أن قرَّرت أن تتجاسر وتُجري هذه المكالمة بنفسها لعلها تَعِي المزيد من فك

طلاسم ما يحدث.

رفعت (مريم) السماعة وطلبت الرقم ذاته وجاء الرد طبيعيًّا آليًّا لا شيء غريبًا فيه فبدأت تهدأ تدريجيًّا، ولكن وساوس التكرار حاصرتها فأجرت المكالمة مرة أخرى ولا جديد، أما الثالثة فكانت المكالمة الفاصلة.

حين طلبت الرقم وفوجئت بهانِي يردُّ عليها بصوتِه الطفولي الحنون.

لم تكن مريم تعرف بفاجعة اختفاء هاني ولا بالكابوس الحي الذي عشته في مسرح السلام، لكنها صُعقت من فكرة رد هاني على مكالمة الساعة، فراحت تتهم نفسها بالهذيان ولكنها تحدثت معه بشكل طبيعي.

- هاني ؟!!...ازيك يا حبيبي...هو أنا طلبتكم والَّا انت اللي اتصلت؟!

- لا يا عمتو إنتي اللي اتصلتي.

- بجد؟!!...بس أنا مش فاكرة إني طلبت الرقم بتاعكم؟...طب قولي بابا وماما كويسين؟

- اه كويسين...إنتي أخبارك إيه؟...وعمو طارق فين..سايبك ونايم برضه.

قالها ساخرًا ثم أكمل: علطول نايم نايم.

أثار الحوار دهشتها، فهذه ليست عادة هاني الطفل في حديثه مع عمته تحديدًا، فضلًا عن أسلوب ونبرة صوته التي كانت تليقُ باليافعين.

حين روت لي أختي أنها تحدَّثت مع هاني، فرِحت فرحًا هيستيريًّا للوهلة الأولى وطَفِقت أسألها كيف وأين مكانه حين حدَّثك؟

ولكن كل هذه الفرحة تبخَّرت بمجرد أن حكت لي هذا الحوار انتهى بصاعقة أكبر أجبرتها على إغلاق المكالمة فورًا.

حيث قال لها هاني بنبرة طفولية حنون:

- عارفة يا عمتو؟!... جِدو طار في الجو؟!

- بتقول إيه يا هاني؟!...إنت غريب أوي؟...إنت مالك يا ولد بتتكلم كده ليه؟...ألو...ألو...إنت يا ولد؟!

انتهت المكالمة بهدوء كما بدأت بهدوء، وزادت معها الحيرة واستبدَّت بعقلها علامات الاستفهام حتى دخل طارق عليها غرفة النوم ليُخبرها بأن تتماسك ويبلغها بخبر وفاة أبي فتفهم لتوها معنى ما قاله هاني وتُدرك أن العائلة في مرمَى سهام لعنة كبرى لا طاقة لهم بها.

وبعد ساعة من البكاء والصراخ الهيستيري حسرةً على فِراق أبي وفجاعة ما حدَث، تمكّن طارق أخيرًا - مستغلًّا خبرته الطبية العامة - من إعطائها حقنة مهدئة قوية استدعاها من الصيدلية فخارت قواها ونامت رغمًا عنها.

فانطلق فورًا متوجهًا إليَّ، وبمجرد أن قابلني أشفق عليّ من فرط انهياري وبكائي الهيستيري في حِضن أمي التي أُصيبت بحالة من الوجوم والصمت وكأنه شلل مؤقت.

لقد رحل شريك عُمرها في غمضة عينٍ، واختار طريقة مُخيفة ومؤلمة للرحيل، وكأنه ينفذ أوامر تلقَّاها من ساعة الهاتف الملعونة.

نهضت متجهًا نحو الهاتف الملعون وأنا في حالة غضبٍ جنوني والجيران وطارق من حولي وأمي طريحة المِقعد الذي تجلس عليه لا تتكلم، بينما ينتشر ضابط الشرطة ومعه الأمناء والعساكر في كل مكان بالشقة لإثبات حالة الانتحار.

لم أستطع إلا أن أمسكت بتلك العِدة ورميتها على الأرض فتحطمت إلى أجزاء ولن أنسَ نظرة الجميع لي على أنني مجنون.

لكني فعلتها وأنا أفكِّر كيف ذهَب أبي بهذه السهولة، وماذا فعَل كي يكون في مرمَى سهام تلك اللعنة؟! والآن أشعر أن الدور على بقية عائلتي أمي وأختي!

استكمل (طارق) نيابة عنِّي التحقيقَ مع ضابط المباحث وكنت في حالة نفسية لا تسمح بأخْذِ أقوالي فطلب الضابط مني ومِن أمي بودٍّ أن نزوره غدًا في القسم لأخذ شهادتي حول انتحار أبي.

بالطبع لن يُصدِّق الضابط ولا أي بشرٍ عاقلٍ أن قاتل والدي الحقيقي هو تلك الساعة الناطقة التي أجبرته على الانتحار وإنهاء حياته!! وبمجرَّد أن بدأت أستعيد توازني النفسي وتوقَّفت عن البكاء حزنًا على أبي وجَدتُني مضطرًّا للنهوض فورًا والانطلاق نحو بيتي حين أبلغتني (شيرين) بأن ضابط الشرطة يريد أخذ أقوالي في محضر اختفاء ولَدِي (هاني) ليكتملَ مسلسل الحُزن والهلع الذي صِرت عاجزًا عن رؤيته.

بمجرد وصولي للبيت شاهدت الضابطَ واقفًا يتحدَّث مع زوجتي (شيرين) وفي يدِها ابنتي (سمر).

وفي هذه اللحظات العصيبة رنَّ جرس الهاتف الملعون، ليُسدد إليّ ما تبقَّى من حُطامي سهمًا جديدًا نافذًا..

كان المُتصل هو رئيس العمال في مصنع والدي يُبلغنا بأن حريقًا شبّ في المصنع والتَهم البضاعة الجاهزة للتسليم وبعض الماكينات ومبنى الإدارة.

هنا أدركت بأن عائلتي صارت في مرمى عدوٍّ يتربِّص بها وأن الأمرَ ليس إلا حربًا ضدَّ جبهة الكابتن (ضياء) لكن جُل ما أُريده هو امتلاك مرجعية منطقية لتفسير ما يحدُث؛ لذا قرَّرت البحث عن ماضي والدي بدقةٍ لعلِّي أصِل إلى هؤلاء المُرابطين حِيال تدميره والتنكيل به والانتقام منه.

تابعوا بقية الحلقات الاسبوع القادم

الأهرام مارس ١٩٨٤

المزيد من الرُّعب..

الساعة الآن الواحدة بعد مُنتصف الليل في يوم لا يُريد أن ينتهي!!

يوم يُشبه لحظة انفجار ماسورة صرف صحيٍّ لتُخرِجَ أقذرَ وأسوأ ما فيها.

لَملمَ (طارق) زوج أختي ملابسَ لطفلَيه تكفيهما لمدة أسبوع واصطحبهما لمنزل أخته كي يقيمان هناك بعيدًا عن الأجواء التي لا تُناسب الأطفال وتحمِل رياحًا مسمومةً محملة بشظايا وأتربة ملعونة قد تَطَال كلّ مَن يدخل في نطاقها.

وبذلك يتفرَّغ لمساندةِ أختي مريم فيما أصابها من هلَع، ويتمكَّن من الانتهاء من إجراءات السفر والهجرة لهم جميعًا فهذا هو الحلُّ وَفقًا لما قاله لي بالحرف الواحد.

وفي سكون الليل استرخى (طارق) في بلكونة أخته على كرسيٍّ وثيرٍ فغطَّ في نوم عميقٍ وكأنه متعطش للراحة وللغياب عن الوعي، فتركته أخته ليَخلُدَ لنومه ويرتاح ودخلت هي الأخرى لتنام.

لم يستمر الأمر للصباح، فماهي إلا ساعة وانفتحت عينا (طارق) وقام مُنتفضًا حينما تذكَّر زوجته (مريم) وقرَّر الاتصال بها.

ومجددًا دخَلت رأسُه في دوائر من التفكير العصيب والوساوس التي عصفَت بذهنه، ولكن قطع كل هذا هاجس واحد مُسيطر غلب كل ما سبق، نفس الفضول الذي قتَل أبي حينَ أصرّ على سبرِ أغوارِ الساعة الناطقة ومُحاولة فَهم لماذا أخافت الأطفال ثم تسبَّبت في كل هذا العبث المتدافع؟!!

قرَّر (طارق) أن يقومَ ويتصل بالساعة مثله مثل كل طالبيها رغم أنه في الأصل لم يُصدِّق ما حكاه الأطفال ولا والدي عن تلك العبارات الغريبة والتي تَمتمَت بها مذيعة الساعة وبعدها تحوَّلت لغولٍ يخطف ثم يقتُل!!

أمسك (طارق) بالسماعة الثقيلة السوداء، وبدأ في إدارة القُرص المَعدِني الثقيل أيضًا طالبًا الرقم ١٥٠ وانتظر لثوانٍ فجاءه الرد فِعلًا بصوتٍ المُذيعة الذي يُصيب القلوب برجفةٍ:

الساعة الواحدة صباحًا و٢٥ دقيقة و١٥ ثانية.

انتهت المكالمة، ولم يحدُث شيء...ولكن ليتَ أبي اكتَفى بمكالمة واحدة، وهكذا فعل (طارق) حين أجرى المكالمة الثانية فجاءه مَن يتوعده بكلماتٍ كالرَّصاص:

الساعة الواحدة صباحًا و٢٥ دقيقة و٣٥ ثانية... ها؟!... مش ناوي تشوف مراتك حصل لِها إيه؟!

صُعِق (طارق) ولم يُعقِّب!!.. وكالعادة سقطتِ السماعة الثقيلة من يده وظل يُشاهدها وصوت

الضحكات الشريرة لمذيعةِ الساعة تصدُرُ منها:

وكرد فعلٍ طبيعي انطلق كالريح وصار يقود السيارة كالمجنون في الشارع مُتجهًا لبيته وكله هلع على زوجته وأولاده.

وفي طريقه اتصل بِي وحكَى لي ما حدَث معه وطلبتُ منه أن يُطمئنني فوْرَ أن يصل ويجدها.

وبمجرّد أن وصل وفتح الباب ووقف في مدخل البيت أدرك تمامًا أنه صَعِد على المسرح وصار أحد أبطال اللُّعبة، وأن حُمَّى الضلالات البصرية والسمعية التي كان يسمع عنها كأحد أعراض مرض زوجته باتت تُحاصره.

- إزيك يا عمو.

قالها (هاني) بصوتٍ متحشرِج خارج من أعماق الجحيم الأرضي، وهو يقِفُ في مدخل الكوريدور ويَحول بينَه وبين الغُرف الداخلية.

لم يفهم (طارق) ما يحدُث ولم يَملك مفاتيح فكّ طلاسمه، فهل هذه هي التخاريف والتهيؤات التي كان يسمعُ عنها في الأفلام والمسلسلات، وأضحَت الآن جزءًا من حياته وصارت واقعًا؟!!

قرَّر طارق الصمتَ، وعدمَ الرد واعتباره ليس موجودًا، بل وتجاسر إلي درجة المرور عَبْره واجتياز المدخل، وبالفعل تقدَّم بثقةٍ واختفى (هاني) كشَبح ماهر يتقن ما يفعله.

دخل (طارق) غرفته بخطوات ثابتة، ليتلقَّى اختبارًا أكثر صُعوبة لثباته، حينَ رأى زوجتَه وشريكة حياته وأم أولاده غارقةً في دمائها التي تَنساب مِن مِعصمها بشدة.

انتهى كل شيء.. ماتت زوجته، على (طارق) الآنَ أن يُصارع ندَمه لأنه تركَها ولو لساعات...وعليه أن يبدأ تَبِعات حياة جديدة مع أولاده، أوَّلها أن يتعامل مع حقيقة انتحار أمهم كأمرٍ واقع وعدم وجودها في حياتهم، وأن يُدبر طريقةً لإخبارهم بهذه الحقيقة قبل موعد مجيئهم من المدرسة بساعات.

انتهى التحقيقُ في حادثة احتراق المصنع، وانتهت كتابة محضر اختطاف ابني وفَلْذة كبدي (هاني) ومرّ على غيابه المُريب ما يقرُب من يوم كامل، تحوَّلنا فيه أنا وأمه إلى رُكام بشَر نحيا ولا نحيا، وبالأخص أمه التي هجَرها النوم، وامتنعت عن الطعام والشراب.

أما بعد أن تلقَّيت مكالمة (طارق) وأخبرني بخبر انتحار (مريم) أُختي، فكان شعوري هو الموت الحقيقي والجمود تعجبًا مما يحدُث وكأنه حُلم أو كابوس طويل واضح التفاصيل أنتظر الاستيقاظ منه.

وكأن نظرات (هاني) لي حين تجلَّى داخل مسرح السلام جاحظ العينين مُضرجًا بالدماء أرادت أن تُخبرني بشيء وتقول لها:

استعد.. المسرح سيخلو من أبطاله.

ولكن ليس بعد...عليَّ الآن الذهاب لأمي للاطمئنان عليها فلم يَعُد لديَّ في الدنيا سوى أَمي وشيرين وابنتي.

هممتُ بالخروج ولم أجب على نداءات (شيرين) التي حاولت الاستفسار عن هوية المُتصل دون استجابة مِني حتى انكفأت أرضًا لتُقبِّل قدميّ وهي تبكي ومنهارة واستطردت:

- أبوس رجلك علشان خاطري طمِّني...قلبي هيقف...ابني جراله حاجة... رد عليَّا يا (عماد) ما تسيبنيش كده؟!!

- فأجبتها مُنخرطًا في بكاء هيستيري.

- مريم انتحرت!!!...مريم ماتت!!

وفي ردّ فعل طبيعي ارتميت في أحضان زوجتي التي راحت تربت على كَتِفي وتقبِّل رأسي وتحاول مواساتي رغمَ عدم اتزانها وحاجتها لمن يواسيها.

ثم قامت بوجومٍ وجلَست بعيدًا وتسمَّرت في مكانِها ووجهها غارق بالدموع، ولم تستطعِ النُّطقَ بكلمةٍ واحدةٍ، فليس لديها الآن لباقة التعبير أو اختيار العبارات لرثاء مريمَ التي كانت تُحبها كأختها، وكأنه لم يَعُد في دائرة اهتمامها سوى كارثة ابننا (هاني).

لن يُجدِي بقائي معها... فانطلَقتُ مُسرعًا صَوْبَ أمي التي تركتُها عند جيراننا وتفرَّغت للصراع على كل الجبهات في هذا اليوم الرافض للانقضاء.

وتمَلَّكني شعورٌ مُسيطر بحلولِ كارثةٍ أكبر من كلِّ ما سبق.

ففي حلَبة الصراع...حينما تتوالى الضَّرَبات ولا تملِك حِيال سرعتها وقوَّتها حتى الدفاع أو المراوغة، تبدأ في الاستعداد لقرار الهزيمةِ ورفع الراية البيضاء...فتشعُر وقتئذٍ بأن الضربة القاضية اقتربت...وأنها صارت مُحتملة في أي وقت لا يفصِلُ بينكَ وبينها إلا ثوانٍ معدودة.

الضربة القاصمة!!

فتَحت السيدة (نادية) جارتنا وصديقة أمي الباب، والدهشة والانزعاج يملآنها فاعتذرتُ لها عن تأخُّر الوقت وسألتها عن أمي وحالها الآن.

فأخبرتني بلُطفٍ أنها بخيرٍ وقررت الذهاب لبيتها والجلوس فيه بحجة أن ذلك أفضل لراحتها النفسية، وبصعوبة بالغة وافقت السيدة (نادية) ورضَخت لِطلبها بعد إلحاح شديد.

لا أعرف لماذا أصابني القلق بمجرد أن سمعت السيدة (نادية) تقول كلمة (راحتها النفسية)، وفَهمت مغزى طلب أمي للراحة في مثل هذه المواقف.

وقد حدَث كما توقَّعت بالضبط من أي مادة خُلقت أمي السيدة (لطيفة) كي تتمكَّن من تحمل كل هذه الابتلاءات المُتلاحقة والضغوط والانهيارات السريعة؟!...أليست من لحم ودم؟

فانتحار زوجها وشريك عمرها، وضياع حفيدها، لم يجعلا مهمتها صعبة في اللحاق بزوجها

وابنتها.

فقد فتَحتُ الباب بهدوء وسكينة لأجد أمي في مكانها المفضل على كرسي الصالون، وفي الأرض عُلبة دواءٍ فارغة تمامًا من حبوبها، إذ تناولتها كاملة بعد أن قرَّرت الرحيل في دنيا أظلمت عليها كل مصابيح البقاء.

الآن.. أصبَحت المهمة صعبة بدرجة مستحيلة...ولم يَعُدْ لديَّ أية قوى لتحمُّل المزيد..

لذا كان طبيعيًّا جدًّا ما حدَث لِي من إغماءة وفقدان وعي بمجرد أن انتهى عزاء أمي فقد سقطتُ مغشيًّا عليَّ نتيجة للصدمات والإعياء الشديد ولم أستفِق إلا بعد يومين كاملين.

٤٨ ساعة علِمت بعدها أن الدنيا انقلبت فيها رأسًا على عقِبٍ.

استوعب (طارق) أن المُهمة باتت صعبة عليه وهو يضطلع بتربية أولاده وحيدًا، والإحساس بالذنب ينهش جنَبات قلبه كل دقيقة، فلا يهنأ له نوم، ولا تَطيب له لُقمة ولا يُحسن الحديث بأكثر من عبارتين مع أي أحدٍ.

والذي زاد مهمته صعوبة أن زيارات زوجته له في عالم اليقظة لم تتوقف، فهو يراها على السفرة وقت إطعامِ أولاده، وفي غرفة نومه، وفي حوض الاستحمام، وفي صورة ثابتة لا تتبدَّل، وهي غارقة في دمائها تمامًا كما رآها فورَ انتحارها.

وفي مرة من المرات تمكَّن الدواء المنوم من الوصول لمفعوله، وراحت عيناه في النوم أخيرًا، فصَحَا فورًا بعد دقيقتين من النُّعاس الكاذب على صوتها تناديه هامسة:

طاااارق...طاااااارق.

فالتفت جانبه لم يرَ شيئًا، وتيقَّن أنه صار عُضوًا مهمًّا في نادي الفِصام العقلي، ولكن النداء تكرّر ولم يتوقف، فهرع من مكانه وودَّع النوم الذي كلَّفه هذه المرة دواء باهظ الثمن.

وحين استسلم لحالة العبث هذه وقرّر أن يُبادل اللامعقول بلامعقول، نطَق رادًّا عليها قائلًا:

- مريم...مريم حبيبتي...إنتي هنا...إنتي حاسة بيا...حاسة تعبت قد إيه من بعدك.

كان الرد بضحكة عذبة مُثيرة لها صدي صوت يُجيد صناعته مُخرجو أفلام الرعب القديمة ذات التِّقنيات المتواضعة.

خرج (طارق) من غرفته واتجه للصالون، حين تغير مكان النداء وصار ينبعث منه، واستمر على هذه الحال لا يجلس على كرسي دقيقة كاملة إلا وقفز فَزِعًا من أمرٍ ما، فصار كالذي يتخبَّطه الشيطان من المَسِّ.

حتى خرج إلى البلكونة هروبًا من دفء البيت الخانق، غير عابئٍ بهَدير البرد القارِسِ في شتاء طالَ كثيرًا ويأبى أن ينتهِي.

كانت كلمة النهاية بإمضاء صاحبها، حين لمح (طارق) في باب البلكونة الزجاجي صورة

(مريم) وهي مسخ دميم فاغرة فاها تُريد أن تفتك به. فكان المهرب الوحيد هو القفز من الدور السابع إلى عالم الصمت.

أما (شيرين) فاكتفت بزيارتي مرة وحيدة في المستشفى كما أخبرتني الممرضة، ومَضَت إلى بيتها هائمة، حتى ابنتنا (سمر) التي تعتبر الأمل الوحيد لها كي تعيش وتواصِل أيامها، فقد فشلت في رعايتها حزنًا على (هاني).

فقدت إحساسها بنفسها وبجسدها فصارت رثَّة غير مُهندمة، ولكنها لم تفقد يومًا أملها في البحث عن (هاني)، ولم تترك مكانًا إلا ونقَّبت عنه فيه، بل صارت تُحدثه وتخاطبه كل دقيقة.

وفي يوم خروجي من المستشفى فاقدًا كل رغباتي في الحياة، فاقدًا إحساسي بمعناها من الأساس، اتجهتُ إلى البيت ليس لشيء إلا لأنني مُنهَك القُوَى، وأريد الاطمئنان على (سمر) ابنتي آخر أملي في هذه الحياة

وحين وصَلت لم أجد (شيرين) ولا ابنتي، ووجدت رسالة على طاولة السفرة بخط يدها كتبت فيها:

(إزيَّك يا عماد...

حمد لله على سلامتك...وقدّر الله وما شاء فعَل في حريق المصنع...طارق مات...انتحر راح لمريم.. وخلاص أنا ما بقتش عارفة طعم للدنيا بعد هاني وصدقني مش هاعرف أبقى بني آدمة طبيعية.

ما افتكرش إنك هتزعل عليَّا زعلك على أهلك...لأنك عُمرك ما حبيتني ولا كمان حبيتك.

خلِّينا في المهم... أنا سبت سمر عند ماما، خلِّيها عندها علشان أنا عارفاك مش هتعرف تِسعدها...ولا هتعرف تهيَّأ لها جو ممكن تحتاجه طفلة...خُد بالك منها وروح شوفها كل شوية..مع السلامة يا عماد)

الآن صادفت أغرب شعور في حياتي..

رغمَ انقباض قلبي وضِيقي مما قرأت...ولكني لم أفزَع ولم يتحرَّك لي جَفنٌ جراء خبر كانتحار زوجتي.

لا أدري لماذا أصابني هذا الشعور السخيف بالتبلُّد واللامبالاة، ربما كما كتَبت لي أننا لم نكن يومًا زوجين سعيدين.

ولم أسأل كيف انتحرت (شيرين) وكيف غابت عن الحياة، وصارت في عِداد الموتى، ولعل هذا كان أمرًا مُزعجًا جدًّا في مواجهتي لأهلها حين حمَّلوني مسئولية غيابها واتَّهموني في محاضر شرطة أنني وراء اختفائها.

ورغم تعرُّضي لمضايقات أمنية عديدة تخص اختفاء (شيرين) فإنَّ عدم وجود دليل واحد لدى

المُحقِّقين وأهلها أوقف هذه المهزلة ولكنه حرمني رؤية ابنتي للأبد حين قرَّر أهل (شيرين) معاقبتي بذلك.

وكان هذا وحده ضربٌ من ضروب العذاب وأحد اللعنات التي لا زالت تُمطر على بيت عائلة القاضي.

الآن لا أحد.

الآن... أنا وحدي...بلا عائلة بلا أنيس بلا صاحب.

لكن السؤال الذي عصَف بذِهني هو: لماذا لم يصيبني ما أصابهم؟...لماذا لم تسحبني قُوى الشر نحو حلبة الصراع فأدخل في دائرة الانتحار مثلهم وينتهي كل شيء؟!!

يقولون لي إنني الآن الوريث الوحيد لكل مملكة الكابتن (ضياء)...الشقق والمصنع وفيلا العجمي وعدة أرصدة ضخمة في البنوك.

ولكن، كيف؟ لقد توقَّفت اللعنات!!... ولم ترن مكالمة الساعة مرة واحدة.

أصبحت حياتي أكثر هدوءًا، ولكن ما جدوى كل ذلك فقد أصبَحت وحيدًا بعدما رأيت من الأهوال ما تستحيل بعده الحياة.

صار الملل وحده عدوِّي، وصرت أحاربه بإنفاق النقود ومحاولة الاستمتاع بالمال والسفر وملذات الحياة لحين إشعار آخرَ.

***

خمسةَ عشر عامًا مرَّت نسيت كل شيء خلالها وعشت وتعايشت، واخترت مكانًا جديدًا لسكني يليق بحياتي الجديدة ولكني لا زلت وحيدًا.. أتجرَّع مرارة وَحْدتي كل يوم، بل كل ساعة..

الآن...وبعد بَوْحِي لكم بكل أسراري وتسجيل معاناتي عبر هذه الحلقات الصحفية، أشعر بارتياح شديد، ورغم عدم علمي بمن سيقرأ حكايتي هذه وإلى أي مدًى ستنتشر... فإنني أشعُر بسَكِينةٍ... ولكنها لم تدُم، بفعل الوحدة ومرارة الشعور بالرتابة والملل والاكتئاب.

ما جدوى الحياة؟!... لماذا خلقنا الله من الأساس؟! لقد فقدتُ توازني النفسي ورجاحتي ويقيني بكل ما ومَن حولي.

يروق لي الآن أن أرحل.

نعم..إنه الوقت المناسب للرحيل...

كنت أتمنى أن أكون مثل الدكتور (رفعت إسماعيل) وأموت مثله في فِراشي بشكلٍ طبيعي، فقد كان مثلي وحيدًا، وتعرّض للعديد من الأهوال هو وعائلته أيضًا، مثلما تعرضتُ، ولكنه في النهاية صمَد وعاش ومات في فراشه موتة طبيعية.

لأنه صَنيعة الخيال، نسيج كاتبه ومؤلفه؛ لذلك سيعيش بطلًا ويموت بطلًا.

أما أنا... فإذا انتهت حياتي الآن، ولم يعد هناك ما أفعله لا لأجلي ولا لأجل أحد ممن حولي لذا سأرحل وأنا مرتاح البال.

اشتقت لأهلي... أبي وأمي وأختى وولَدِى هاني وابنتي.

الآن حان الوقت لزيارة أحبابي.

توجَّهت لبرج القاهرة ورأيتهم جميعًا ماثلين أمامي، ينادونني أنْ أقْبِلْ ولا تخَف وكن من الآمنين.

تابعوا بقية الحلقات الأسبوع القادم

إلى هنا انتهى نص ما كتَبه الصحفي محمود بدر الدين في الحلقة الثالثة من سلسلة (الناجي الوحيد) ونُشر في صفحة التحقيقات بجريدة الأهرام وحققت أعلى القراءات ورفعت معدَّل مَبيع الجريدة.

ولكن...

لماذا كتب الصحفي محمود بدر الدين عبارة (تابعوا بقية الحلقات الأسبوع القادم)؟!

أية بقية؟!...وأي أسبوع قادم؟!

ألم تنته الحلقات وفقًا لاعترافات (عماد القاضي)؟ وانتهت قصته على محاولته الانتحار وصعوده برج القاهرة ثم إنقاذه وإيداعه مستشفى الأمراض العقلية؟!

لقد حدث كل هذا فعلًا... ولكن (عماد القاضي) لم يُلقِ كلَّ ما في جُعبته.

فثَمة وجهٍ آخرَ للحقيقة...وقد أدرك ذلك محمود جيدًا.

حين زاره وأعطاه نسخة من الجريدة ليقرأ الحلقة الثالثة والأخيرة حسبما ظن عماد.

لقد قرر الصحفي محمود بدر الدين أن يبحث عن المزيد من المَجد الصحفي والصعود في سلك مهنته على حساب هذا الرجل المريض نفسيًّا والمُنتهِي إكلينيكيًا.

واتخذ قراره في الاستمرار في نشر الحلقات ولكن دون إذن (عماد) ودون أن يعرفَ مستغلًّا وجوده في المستشفى نزيلًا، وواصل استدراجه واستخراج مزيدًا من الاعترافات التي حكاها (عماد) بالفعل وباح بها وهو يعلم يقينًا أنها ليست للنشر.

كانت رسائل القُراء التي تصل لمحمود عبر البريد تقول: لماذا بدَت الحلقات المنشورة كما لو كانت قصة مبتورة تطرَح أسئلة لا إجابة لها؟!....فأين الحقيقة؟!

وهذا أيضًا ما شعر به (محمود) كصحفي نابغٍ وذكي فخمّن أن هناك إجابات مخفية لأسئلة كثيرة

كيف تهدأ الأمور فجأة؟ من بعد الصخَب وسيل الكوارث؟ كيف توقفت لعنة مكالمة الساعة وكأنها جاءت في مهمة محددة وهي إخلاء الساحة لـ (عماد) منفردًا؟!

لماذا قرر (عماد) الانتحار وهو يتمتع بثروة كبيرة تمكِّنه من بَدء حياة جديدة مستقرة لو كان مثلما يدعي أن الهدوء والسكينة شعار المرحلة؟

كل هذه أسئلة دفعت محمود بطريقته الماكرة أن يجبر (عماد) على البوح بالمزيد.

واستطاع أن يُقنعه بأن الفضفضة والاعتراف حقَّقا له السلام النفسي، ووعده بألَّا ينشر ما سيحكيه من أسرار.

فما هو الوجه الآخر للحقيقة؟

وأين اختفت مكالمة الساعة؟

الحقيقة..لا زال هناك المزيد

الكلمات قد تكذب،

ولكن الأفعال دائمًا تقول الحقيقة..

- (عماد): ها؟!...طمِّني إيه الأخبار؟

- (محمود): أخبار إيه بالظبط؟

- (عماد): أخبار الحلقات...عاجبة الناس؟.. مكسرة الدنيا؟...بيقولوا على حكايتي إيه؟...ويا ترى شايفينِّي ازاى؟

- (محمود): قلتلك الحلقات الثلاثة مكسرة الدنيا وقالبة مصر كلها...إنت مُتخيل يا أستاذ عماد مبيعات عدد السبت زادت قد إيه؟...إنت ليك فضل عليَّا..أنا أخدت مكافأة بسببك... القصة شيقة والناس متعاطفة معاك...وحاسة إن الدنيا جت عليك...لكن !!

- (عماد): لكن إيه؟...مالك؟

- (محمود): فيه لسه تساؤلات كتير يا أستاذ عماد بلا إجابات...فيه حاجات كتير أوي القراء لما بيبعتُولْنا على مقر الجريدة طالبين يفهموها مش بنلاقي لهم عليها تفسير.

- (عماد): زي إيه؟

- (محمود): زي الساعة...مكالمة الساعة...جرى إيه يا أستاذ عماد !!...هي دي حاجة طبيعية أصلًا... ليه جَت أساسًا وليه اختفت مرة واحدة...وهاني ابن حضرتك راح فين؟..مين ممكن يكون خطفه؟

ليه ماحدش تواصل معاك وساومك عليه مثلًا؟... وليه ما فكرتش تستغل ثروتك وتتجوز مثلًا، وتبدأ حياة جديدة وسعيدة؟!

ليه فضَّلت الانتحار على إنك تعيش عيشة الملوك بالثروة دي؟!

- (عماد): بص يا محمود... أولًا مش هانكر إني ارتحت لك في الكلام بدليل إني وافقت تنشر قصتي ف جورنالك..وحكيت لك خصوصيات وتفاصيل مُرعبة وغريبة في حياتي

كل أسئلتك اللي سألتها وعلامات الاستفهام الغريبة دي لها إجابات طبعًا وكلها عرفتها وفهمتها.

- (محمود): نعم!!!...بتقول إيه يا أستاذ محمود ؟!

- (عماد): زي ما بأقولَّك كِده...اللي حكيتهولك ده اللي يُخص الناس اللي بره...اللي ممكن يتحكي...أما اللي ما يتحكيش ولا ممكن يعرفه بشر ويستوعِبُه فلسَّه ما اتحكاش.

- (محمود): لاااااا....ده أنا مش ماشي...مش هاسيبك انهارده يا أستاذ محمود ...بالراحة كده عليَّا...يعني تقصد إنك عرفت لغز مكالمة الساعة ولغز اختفاء هاني ابنك ولغز انتحار عيلتك كلهم.

- (عماد): بالظبط كده...عندك دماغ تستحمل اللي هيتقال...واللا تفضل تعيش بقية حياتك محافظ على ثوابتك العقلية وقناعاتك المنطقية؟!

- (محمود): ده كلام ؟!!...طبعا هاسمع...هاسمعك للنهاية...إنت نسيت إني صحفي...يعني مش

هاقبل بالنهايات المفتوحة وهادوَّر بيني وبين نفسي على تفسير لكل ده.

- (عماد): تدور؟!!! يبقى روح دور يا شاطر...قَال تِدوَّر قَال.

- (محمود): إيه بس يا أستاذ عماد مالَك...ده احنا ما صدَّقنا بقينا صحاب.

- (عماد): أولًا إحنا مش صحاب....إنت كدَّاب...إنت صاحب نجاحك وانفراداتك بس...أنا بالنسبة لك انفراد صحفي هيخلص وياخد وقته وابقَى تَعالى قابلني لو شُفت وِشَّك تاني.

وبعدين تدوَّر على تفسير ازي والنبي... ده انت لو لفِّيت الكُرة الأرضية علشان تفهم اللي حصل وليه حصَل والله ما هتعرف معلومة واحدة صح حتى لو بالتخمين...مهما خيالك شطح مش هتقدر تخمِّن إيه اللي حصل وخلاني وِقِفْت على برج القاهرة وعايز أخلص من حياتي!!

- (محمود): طيب أنا آسف...آسف يا أستاذ عماد...إحكي اللي عايز تحكيه ولو مش قادر انهارده بلاش...ولو ما حبيتش خالص براحتك...أنا باشكرك على الحلقات اللي فاتت وباتمنى لك الشفاء العاجل وتخرج من هنا بالسلامة.

- (عماد): باقولَّك إيه؟!...أنا مش خارج من هِنا...لأني عايز أفضل هنا.

وبلاش تعمِل عليَّا الفيلم ده...إنت هتموت وتعرف بقية الحكاية.

أنا موافق أحكيلك... لأني خلاص أخدت اللي أنا عايزه...ومش فارق معايا أعيش واللا أفضل في الدنيا بتاعتكم دي.

أنا أخدت اللي يخليني مش محتاج ولا ضعيف زيكم؟

- (محمود): مش فاهم حاجة؟...ممكن توضح لي يا أستاذ عماد؟!

- (عماد): مش مهم... سيبك من اللي قلته ده...خلينا في حكايتي...أنا هاحكيلك...بس طبعًا مش محتاج أقوَّلك إن ده مش للنشر...ومفيش حلقات تاني خلاص...مفيش صحافة ولا قُراء.

ولو فكرت تُنشر أنا هاقدر أعرف...إوعى تفتكر إني معزول عن الناس والدنيا بره.

- (محمود): من غير ما تقول يا أستاذ عماد...أنا نهيت الحلقات خلاص وبلَّغت رئيس التحرير والقُراء بدَه...اللي هتحكيه ده سر بينا ليّا انا علشان ما اتجننش....الفضول الصحفي هيموتني بجد!!

- (عماد): تمام... بص يا أستاذ محمود... أنا فعلًا (الناجي الوحيد) زيما سميت سلسلتك الصحفية ودي حقيقة..

لكن النجاة دي مش بالطريقة اللي اتحكت لك... ولا مكالمة الساعة خلصت...مكالمة الساعة كمِّلت بس ليّا أنا بس...بقت تيجي لي أنا بس... الأول قبل ما احكي...مش هتكتب حاجة هتسمع بس.

وهات الكاسيت ده...وطلَّع الشريط اللي فيه.

- (محمود): حاضر يا أستاذ عماد.

- (عماد): بس كِدَه....دلوقت أقدر أحكيلك على غرائب وعجائب لو اتحطت في قصة هيتكتب

عليها صدِّق أو لا تُصدِّق.

بدأ (عماد) في سرد أسرار الحكاية وسَبْرِ أغْوَارِها في حضور الصحفي الذي أضمر ما لا يُظهر وأقسَم منذ اللحظة الأولى من حديث (عماد) بينه وبين نفسه أن يستغل هذا الانفراد الصحفي لصالحه وأن ينكُثَ بعهدِه ويُغادر المستشفى إلى مبنى جريدة الأهرام ويكتُب كل ما سمع وبالفعل نشر الإعلان التالي صبيحة الغد:

«عزيزي القارئ..

خلال ٣ أسابيع تابعتَ معنا قصة عماد القاضي الناجي الوحيد من بين عائلة منكوبة انتحر جميع أفرادها بعدَ تعرضهم لظواهر غريبة...انتهت حكايته بنشر الحلقة الثالثة والأخيرة،

لكن التساؤلات لم تنتهِ بعدُ!!

نعرِفُ أن لديكَ الكثير من علامات الاستفهام؛ لذا قرَّرنا أن نواصلَ انفراداتنا وأسرار خطيرة وتفاصيلَ مثيرة تُنشر لأولِ مرة حول قصة الناجي الوحيد.

تابعونا وانتظروا المزيدَ من الإثارة والرُّعب في الأسابيع القادمة».

الحلقة الرابعة
فلاش باك

الأهرام مارس ١٩٨٤

بعد الطوفان الذي ألمَّ بعائلتي، دخَلت في حالة عدم اتزان نفسي كبيرة لعَلِّي أُعاني من آثارها حتى الآن وأنا أحكي حكايتي لكُم.

ولكن لم تمنعني هذه الحالة ولم يعقني ذهابي لطبيب نفسي وتناولي كمية من الأدوية والعقاقير المهدئة أن أنساق لرغبتي العارمة في فهم الحقيقة.

والإجابة عن تساؤلات كثيرة لعلَّ أبسطها:

لماذا حدَث كل هذا؟!

ما الذي جنته هذه العائلة المنكوبة كي تُحيط بها كل هذه اللعنات؟!

وبالفعل بدأت أبحث وأقوم بدورٍ يبدو كوكلاء النيابة أو المحقِّقين البوليسيين ومن خلال حديثي مع جيران أمي وأبي وجيران أختي وعمال المصنع وفاطمة الخادمة توصَّلت للكثير من الأسرار والإجابات.

ولعل فاطمة تحديدًا كانت هي المنبع الكبير لحل اللغز أو على الأقل تبريره على أرض الواقع، حيث امتلكت اعترافًا خطيرًا لا أدري كيف امتلكت من الجرأة والتبجُّح أن تعترف به أمامي وهي في عُقر دارها وسط حماية جيرانها في الحارة الشعبية التي تسكنها.

كانت الحقيقة صادمة وبدت أمامي مثل فلاش باك لمواقف عديدة لم أكُنْ أعرِف عنها شيئًا

فلاش باك ١:

مقابلة اضطرارية

دخَل الكابتن (ضياء) الكافيتيريا الفخمة الكائنة في وسط البلد والتي يرتادُها دائمًا، فرحَّب به النادل واستقبله بحفاوة.

- النادل: أهلًا أهلًا كابتن ضياء... إزي حضرتك...سعدتك بقالك كتير حارمنا منك.

- ضياء: أهلًا بيك يا عوني... أخبارك إيه؟!...وازاي ولادك؟

- النادل: بيسلموا على سعادتك... اتفضل في مكانك...وحالًا هاجيبلك قهوتك.

- ضياء: تسلم يا عوني... بُص..فيه آنسة هتيجي هتسأل عليَّا دخَّلها على مكاني علطول

- النادل: يا فندم هي موجودة سعادتك...مستنياك بقالها نص ساعة.

- ضياء: غريبة..جاية بدري ليه...طيب يا عوني شكرًا.

تعجَّب (ضياء) من مدى إلحاح الفتاة على رؤيته، والتي لم تُفصِح عن سبب لقائها معه حين كلمته في التليفون، وأخذت موعدًا لمقابلته، وهاهي الآن تأتي مبكرًا لتؤكِّد أهمية ما تريد الحديث بشأنه.

مد (ضياء) يده ليسلِّم على فتاة عشرينية جميلة، ولكن صرخة جمالها تتواري وتختفي خلف هيئة فقيرة رثَّة تُحاول أن تتجمل بطريقة شعبية فتزيد الطين بِلَّة، وقد أدرك (ضياء) ذلك بخبرته المعروفة والمتراكمة من صداقاته النسائية ومغامراته كدنجوان في بلاد العالم التي زارها، مهما ادعى غير ذلك ورسم ملامح الرجل المحافظ الوقور أمام زوجته العاقلة السيدة (لطيفة) فور عودته من رحلاته.

وبمجرد أن لمح فيها ذلك، جهَّز لها أسلوبًا يليقُ بها، من نبرة تعالٍ واضحة وترفُّع مُتعمَّد يتماشى قليلًا مع قلة الذوق، رغم انجذابه لجمال ملامح وجهها وجسدها الفتَّان خلف الملابس الرثة.

- أفندم؟!...خير؟!

- ازي حضرتك؟

- كويس...خير؟

- ليه حضرتك قلقان؟!... مفيش حاجة!

- نعم؟!!! قلقان؟!... خير يا آنسة سماح..ممكن بعد إذنك أفهم فيه إيه...وكفاية أوي طريقتك الغريبة في التليفون..وإني وافقت آجي أقعد معاكي من غير ما اعرف عايزة إيه؟

- طريقتي الغريبة ازاي بس يا كابتن؟

- لا عايزة تقولي إنتي مين؟...ولّا عايزة إيه؟

- أفتكر إني قلت لحضرتك في التليفون إني أعرف الحاج محمود القاضي...وافتكر كمان إنك ما

كُنتش هتقابلني إلا لما سمعت الاسم ده.

- (بانفعال شديد) أيوا ماله محمود؟!...إنتي إيه علاقتك بيه؟

- أنا بنته.

صمت (ضياء) بُرهة، وأمعَن النظر في وجهها ورجع بظَهْره للوراء وضبط جِلسته، وفي هذه الثانية دخل الجرسون ووضع القهوة والماء، مما أعطاه فرصة لاستعادة توازنه والتفكير فيما سيقول، وإشعال سيجارة ليشربها مع رشَفات القهوة.

- تشربي إيه الأول.

- أنا طلبت ليمون خلاص.

- (بعصبية موجِّهًا كلامه للجرسون صغير السن) يالَّا يابني بقَى فيه إيه....ساعة بتحُط الحاجة...إنت غريب جدًّا!!!

- ضياء باشا... أنا عايزة حضرتك تِهدى شوية، وصدَّقني أنا هاخش في الموضوع علطول ومش هاعطلك كتير.

- ياريت.

- حضرتك عارف كويس زي ما أنا عارفة إن بابا الله يرحمه كان شريكك في يوم م الأيام في مصنع الجلود.

صمتت (سماح) بُرهة لتُعطيه مجالًا للرد، فلم تجد إلا تزايدًا في حنق نظراته.

- وبدون الدخول في تفاصيل ممكن تضايقك وتعطلك فأنا باعرفك إني جاية ومعايا أوراق ومستندات مستعدة أوريهالك، هي بالنسبة لي علامة استفهام.

وأمي ربنا يديها الصحة، قالت لي إنكم اختلفتوا، وحضرتك م الآخر كده طردته من المصنع، ودخلته السجن وحرمتنا منه، ده غير ديوننا اللي زادت وفي الآخر مات بحسرته جوه السجن وهو مش قا...

- (مقاطعًا إياها) بُصي يا آنسة سماح... قبل ما تُخشي بس في حالة الصعبانيات دي... وتحاولي تستعطفيني وتوهميني إني ظلمتكم وأكَلت حق أبوكي وشردتكم ورميتكم في الشارع... فده طبعًا كلام شوفته وسمعته في مليون مسلسل قبل كده.

ومالوش أي علاقة بالواقع، ده كِذْب وادعاء وياريت تاخدي شوية الورق الأهبل بتاعك ده وتتكلي علي الله ما تضيعيش وقتي ووقتك..

أبوكي ردّ سجون...ومجرم وبيتاجر في المخدرات... ودخل السجن علشان خد جزاؤه... أنا ذنبي إيه بقي إذا كان مات جوه السجن ولَّا بره السجن.

- كنت متوقعة ردك ده يا كابتن... بس اللي مش على بالك ومش مستوعبه إن بابا ما مضاش

على أي ورقة تأكد ملكيتك للمصنع ده والعقود الحقيقية معايا.

يضحك في استفزاز واضح وهو يقول: روحي بروزيها وعلقيها العقود دي... ولا أقولّك فيه محامي شاطر أوي في العمارة اللي قصادنا دي إطلعي له ووكليه يمكن يجيب لك حقك.

أبوكي قبل ما يخش السجن باع لي نصيبه كله، وباس رجلي علشان ما أبلغش عنه إنه بيتاجر في المخدرات.

- (باستعطاف) كابتن ضياء... بلاش نحسبها كده...أنا بصراحة جاية لحضرتك علشان تشوف لي شغل... أي حاجة أشتغل أي حاجة... سعادتك برضه معارفك كتير وتقدر تكلم لي أي حد.

- (بنبرة ارتياح وغرور) آآه...طيب...ده موضوع تاني...خُدي ده...ده كارتي فيه كل تليفوناتي.. كلميني كمان يومين وربنا يسهل.

- حاضر...ربنا يخلي سعادتك.

قامت سماح ومدَّت يدها للسلام، فلم يُبادلها وظل يقرأ عناوين الصفحة الأولي في الجريدة وهو ينفث دخان سيجارته.

فسحبت يدها بخجلٍ وحِقْد يعتملان معًا في نفسها، ومضت وهي ترمقه بنظرة غلٍّ غير طبيعية.

فلاش باك ٢:

حضور الشيطان

- ألو... أيوا يا سماح.

- سماح: أيوا يا بطة..عملتي إيه؟...شكلك زايطة معاهم في المصيف ولّا عملتي حاجة.

- فاطمة: لا والله...عملهم أسود إن شاء الله.. الليلة دي هتكون سودا على دماغهم كلهم...هيخرجوا كلهم رايحين يحضروا مسرحية وهيسيبوا لي البيت فاضي...سايبين لي العيال بس.

- سماح: بطة.... جدعة يا بت تعيشي.

- فاطمة: ما تقلقيش... أنا عند كلمتي معاكي... وعملت زي ما قلتي لي بالظبط هنا وفي البيت اللي في مصر... رشيت الميه بتاعة اللي ما يتسمَّى (الشيخ برهان) في كل حتة في البيت.

- سماح: أيوا كده...إلهي تولع في بيتهم نار يارب...إنتي ما تعرفيش الراجل ده عمل فيَّا إيه...ده ذلّني أنا وامِّي واخواتي...وكله على يدك يا فاطمة... أخويا الصغير اللي مات م الجوع والفقر وأبويا اللي مات بحسرته في السجن...لازم أحسَّره على أهله وأجننه زي ما عمل فينا.

- فاطمة: طيب...اقفلي دلوقت علشان شوية وهيخرجوا وكلميني على الساعة ٩ كده..

هكذا استغلت (سماح) فرصة اقترابها من عائلتنا وعملها في المصنع، ورشَّحت لأبي خادمة تساعد أمي في خدمات المنزل الكبير حينما سألها عن ذلك.

ووقع اختيارها فورًا على (فاطمة) جارتها وصديقة عمرها منذ الطفولة لتكون خادمة في البيت الكبير كما خطَّطت لذلك وجنَّدتها لاختراق المكان ودخوله بشكل آمن.

ولم تدخِر (فاطمة) وُسعًا أن تساعد صديقة عمرها وجارتها وابنة حارتها، وكانت أولى مهامها أن تأتي للدجال بقميص والدي فيه شيء من عرقِه، لتبدأ رحلة الانتقام.

***

- مَعَيش تاني!! ... أنا بِعت دهبي كله..مش هاقدر أديك ولا جنيه زيادة ... كِده كتير أوي حرااام عليك!!

قالتها (سماح) بنبرة عنيفة، وتذمُّر تام لابتزاز (برهان أبو شامة) دجال البساتين المعروف، الذي لا يشبع من المال وطلبه من السيدات المقهورات والمنكوبات وذوي العيوب والعاهات، في مقابل تمائم وعزائم وأعمال وعهود تعيد لهم الحياة أو تمنحهم فرصًا من الأمل أن يتغير حالهم.

أو فقط لمجرد الانتقام كما في حالة (سماح)، علّ نارها تبرد أو تتشفَّى في غريمها وسبب نكبة عائلتها وموت أبيها بحسرته في غياهب السجن.

رد بُرهان أبو شامة بصوته الأجش المرعب:

- إنتي مش عايزة تشقلبي حاله ... وتجنني عياله ... وتخلِّيه يمشي يكلِّم نفسه.

- آه ... .بس احنا بقالنا ع الحال ده شهرين ... وأنا خلاص قربت أشحت ... وهو لسه عايش في خير أبويا..وما بيحصلوش أى حاجة..قلت لي هتشوفي بيته قايد نار... وهو بيخسر كل حاجة ... .ما شوفتش أي حاجة حصلت.

- لأنك غشيمة ... إيش فهِّمك في السحر والشغل السُّفلي ده ... إنتي فاكراه بالساهل.

- اسمع يا راجل انت ... أنا حاسة إنك بتنصُب عليَّا ... ودِيني لو ما حصَل حاجة لاروح أبلَّغ البوليس والنيابة عنك وأدِلّهم على طريقك.

كان (أبو شامة) يعرف جيدًا أنه يكذب وأنه يحصُل على المال مقابل الوهم، وخديعة الساذجات أمثال (سماح) وغيرها، ولكن بعد هذه المقابلة بينهما وتهديدها له، بدأ التحرك الحقيقي للأذى والسحر، خوفًا على إمبراطورية الدجَل والمخدرات الكائنة في مجموعة عِشش وأوكار ودكاكين متراصة ومتكدِّسة يقتات منها ومعه جيش من المجرمين والمتعاطين والمتسولين وأرباب السجون.

وهكذا يفعل مع كل زبون يرتاد المكان أكثر من مرة، ويلح في الطلب ولا يقبل الوهم ويصر على النتائج، فيحيله إلى (المستوى الأعلى من السحر السفلي. وبالفعل لجأ إلى (باتريك)، ساحر إفريقي مُقيم في الجبال لا يغادره يتحدث المصرية الشعبية بطلاقة، ويَحصل على الكثير من الأموال في مقابل تميمة نافذة تُصيب ولا تطيش، تنعقد فلا تنفك، تنطلق كالسهم ولا تُرَد.

طلب (أبو شامة) من (سماح) إحضار ما يُسمى بالـ(أتر) من الكابتن (ضياء)، فحصلت عليه وتم تسليمه للساحر الإفريقي الذي صنع العمل السفلي وحضر الشيطان وسمح بدخوله اللعبة.

الساحر (باتريك) جيَّش بدوره كتيبةَ من الجن يقودهم مارد (الغبار الأسود)، وبمجرد أن صدرت الأوامر لهم بالتحرك، تغلغلوا واختاروا طرائقهم وشعابهم.

كل أباطرة عالم الجن السفلي تعرف جيدًا مقام ومكانة (الغبار الأسود)، إنه ليس مجرد جني عادي...بل مارد شرس يحتاج لكي يحضر ويتشابك مع عالم البشر لأعلى درجات الولاء والطاعة والانسحاق في دهاليز الشر والخيانة والغدر والخسة وكثير من النجاسة والدرجة القصوى من الكفر البواح.

يجيد (الغبار الأسود) اختراق العقول ودخول عالمهم، وملئه بالشَّتات والبلبلة والأوهام والحزن القاتِم والخوف القهري.

يكره الجنس البشري ويمقُته ويتلذَّذ بمعاناتهم، بل ويطرب من سماع صُراخ الأطفال وبكائهم في ملاجئ الحروب وأسِرَّة المستشفيات ولحظات اختطافهم بعيدًا عن ذويهم.

عرفت ذلك وتأكَّدت من مدى قوته وسطوته فيما بعد!!

المثيرُ للضَّحك أن دجَّال البساتين الشعبي (برهان أبو شامة) الذي كان سببًا في تحضير (الغبار الأسود) لم يكن بباله أو يتوقَّع تغوّل هذا المارد بهذه الصورة وأن يُطلق له العنان لتنفيذ ما أمر به من تدمير شامل لهذه العائلة المرصودة.

فالهدف المرصود عائلتي المترابطة والحميمية، وضربهم واختراقهم لا يتم إلا من القاعدة وصولًا للقمة، وأن بوابة الاختراق لن تكون إلا من خلال (طفل).

نعم طفل!!

كان (هاني) ابني هو بوابة اختراقهم عبر خطة تبدأ بأول لمحة خوف وذُعر حقيقية صادرة من القلب والعقل معًا، فكان له ما أراد عبر صوت امرأة عجوز رصين يُخبرك بالساعة ودقائقها وثوانيها في مكالمة مسجلة.

قائلًا: الساعة الآن..

فلاش باك ٣:

مسرح الشر

الشيطان يكمن في التفاصيل.. وفي كل ما يُحاك ويُدبَّر بالليل أيضًا!!

لقد اختار (الغبار الأسود) مكالمة الساعة مدخلًا وثقبًا لزرع الخوف وتمريره ونشره داخل نفوس هذه العائلة.

وقد لمح بذرة الخوف في قلب (هاني) رغم ضحِكه واستخدام المكالمة كلُعبة، فضلًا عن أن طبيعة صوت المذيعة كان ممتزجًا بصرامة وحدّة ومِسحة رعبٍ خفيفة لا تُحسّ، تنبعث من بعيد شعَر بها كل طفل في جيل الثمانينيات استمع لهذه المكالمة.

عرف (الشيطان) أن يحدث (هاني) منذ المكالمة الأولي عن يوتوبيا يفتقدها، ويخدعه بفكرة الصعود للجنة، والسفر لعالم الألعاب والحلوى والمغامرات اللذيذة.

عالم ينطلق فيه بلا حساب طفل مصاب منذ يومه الأول بمتلازمة ADHD وفرط حركة ونشاط زائدين عن الحدِّ، وعِشْق غير طبيعي للحلوى، وأهله لا يُدركون ذلك ولا حِيلة لهم إلا أن يوسعوه ضربًا وأن يقوموا بحبسه داخل غرفة بالساعات، والإمعان في تدليل أخته أمام عينيه كعقاب له على أخطائه.

استغل (الشيطان) حالة (هاني) النفسية وتمرده كطفلٍ، وأغراه بالنزول للشارع لمكافئته بمزيد من الألعاب والحلوي في عالم أكثر حنانًا مني ومن أمه.

- يالَّا يا هاني... يالَّا يا حبيبي... انزل دلوقتي...الطيارة مستنياانا... هنطير ونسافر بعيد لعالم الألعاب والحلويات.

مدينة كبيرة بتاعتك لوحدك تلعب فيها زي ما انت عايز...ما حدش يزعّق لك ولا يضايقك.

تاكل في شوكولاتات للصبح.... يالَّا بسرعة انزل...الطيارة هتاخدك وترجعك تاني لماما واختك.

هكذا استطاع احتلال أذهان كل من أبي وأمي وأختي وطارق وشيرين وجميعهم حدَّثتهم الساعة وهمست في آذانهم.

لقد رسم الشيطان لكلٍّ منهم عالمًا سوداويًّا قاتمًا لا يَصلُح معه العيش ولا يستقيم، ولا مفر من الخروج منه ومغادرته على الفور من خلال أقرب الطرق حتى لو كان القفز من حالق والسقوط صريعًا مهشمًا!!

فلاش باك ٤:

حريق المصنع

قبل حريق المصنع بأسبوع لم يَعُد هناك حديث جانبي داخل أروقة المصنع إلا حول ما حدث لعائلتي وما ألمَّ بنا بين عَشِيَّة وضُحاها.

لقد كنت متوهِّمًا أن ما تسرَّب لدى مسامعهم، أن القصة مجرد حالات انتحار متتالية، أو أعراض اكتئابية لازمت البعض وصارت مُعدية للبعض الآخر.

لكني اكتشفت في النهاية أن الخبرَ الغريب قد تسرَّب بشأن العائلة التي دخَلت فيما يسمى لعنة مكالمة الساعة !

***

- يعني إيه مش جاي انهارده؟!... ده فيه طلبيات لازم تتمضي وصبغات وقطع غيار جديدة لازم نستلمها ونرجَّع الفارغ...موَّال كبير أوي... ده لو ما جاش انهارده المصنع ده هيتخرب!!

قالها الريس (عز) رئيس العمال بانفعال شديد وهو يخاطب (عايدة) سكرتيرة مكتب أبي.

- عايدة: طب أعمل إيه...قولِّي أعمل إيه؟... ضياء بيه عُمره ما سابنا وساب الدنيا بالشكل ده...فيه حاجة غلط... ده حتى ردوده عليَّا مش طبيعية...أنا مش عارفة أوصل له...وباتصِل بيه على تليفونه في بيته ماحدش بيرد.

- الريس عز: أنا مش عارف إيه اللي صابه ده...غريبة أوي...ده الراجل طلِع يصيف مع عيلته ورجع واحد تاني!!

- عايدة: حاجة غريبة فعلًا... والأغرب اللي مدام لطيفة حكته.

- الريس عز: حكت إيه؟

- عايدة: حاجات غريبة كده...مكالمة بيطلبوا فيها الساعة...مكالمة الساعة مش عارفها

- الريس عز:أيوا مالها يعني...مش فاهم.

- عايدة: ماهي دي سبب المصايب...من بعدها حصلت الحالة دي للراجل... الست لطيفة بتقول لي مكالمة فيها لعنة.

- الريس عز (ضاحكًا): بس بس بس...والنبي بطَّلي هَبل...إيه اللي بتقوليه ده؟!!... فيه حاجة في الدنيا اسمها مكالمة ملعونة...دي عيلة شكلها مهفوف أصلًا.

- عايدة: ما تتريقش... ده أنا سمعت الحكاية كلها م الحاجة لطيفة، وفاطمة الشغالة اللي عندهم وازاي الواد الصغير كان بيلعب في التليفون وسمِع مكالمة الساعة دي وبعدها حصَل اللي حصل.

- الريس عز (مقاطعًا إيّاها): إيه يعني مكالمة الساعة دي؟!!

- عايدة: مكالمة الساعة مش عارفها؟!...اللي هي بنطلب باين ١٥ أو حاجة زي كده وترد عليك

واحدة ست عجوزة وتقولّك الساعة كام.

- الريس عز: ولا اعرفها ولا عُمري سمعتها...هي الناس دي فاضية ما وراهاش شغل...بيعرفوا الكلام ده منين؟

- عايدة: يا عم انت اللي مش هِنا... دي مكالمة معروفة علشان تعرف بيها الساعة بالظبط بالدقيقة والثواني...حتى استنى هاطلبهالك وشوف.

أمسكت (عايدة) بالسماعة وترددت قليلًا، لكنها طلبت الرقم ووضعت السماعة على أذن الريس عز فسمعها وضحك.

- الريس عز: إيه الحلاوة دي.... تاني والنبي.

- عايدة (ضاحكة): إنت مالك عامل زي العيال الصغيرة لما يفرحوا بلعبة كده.

- الريس عز: اطلبيها تاني بجد عايز اسمعها تاني.

كررت عايدة المكالمة عدة مرات، وهي مندهشة من حقيقة أن الريس عز لم يسمع عنها من قبل، فهذا النوع من الرجال لا يبرح ماكينة العمل حتى يسقط مغشيًّا عليه في باص العمال، ثم لا يقضي في بيته سوى ساعات معدودة يتناول فيها وجبة سريعة ثم يرتمي كالجثة الهامدة حتى الصباح، ثم يعاود الكرّة كل يوم.

نهض (الريس عز) ومعه زميله العامل الذي حكا لي تفاصيل الحوار وتوجه إلى عمله تاركًا (عايدة)، وموصيًا إياها بألَّا تتوقف عن ملاحقة أبي حتى يظهر ويأتي للمصنع لتسيير الأعمال المتوقفة.

بقيت عايدة في حالة حيرة، إذ كيف ستتصرف لو غاب (ضياء بيه) عن إمضاء كل هذه الأوراق والقرارات لمدة يومين فقط؟!... فكثير من المشاكل ستحيق بالمصنع ومن فيه لو لم يبتّ في هذه القرارات قبل يومين.

ولكن...

ثمة حيرة من نوع آخر وقلق جديد قد نبتت بذرته داخل عقل (عايدة)، لم تستطع مُدافعته، بل إنه يزيد ويتضخم كلما دافعته وحاولت تناسيه أو ادعت نسيانه، وشغلت نفسها في شيء سواه

قبل نهاية الدوام الرسمي في المصنع وموعد العودة كانت عايدة بلا مقاومة، ولم تجد بُدًّا من الإمساك بسماعة الهاتف والاتصال بالساعة خاصة بعد شكوك المكالمة الأخيرة التي أجرتها وهي تضحك معه وقد سمعت في آخرها همسًا ما نصه كالتالي:

الساعة الثانية عشرة ظهرًا وخمسة وثلاثين دقيقة وعشرون ثانية يا عايدة!!

باتت تشك في كلمة (يا عايدة) هل سمعتها أم لا؟!

وبعد ساعة واحدة...لم يفهم عمال المصنع حالة الهلَع وضيق التنفس التي مرت بها السكرتيرة

(عايدة) ولكنهم التفَّوا حولها وحاولوا إسعافها، وهم يسألون (الريس عز) عما حدَث فهو آخر من كان يتحدث معها قبل صُراخها الهيستيري بساعة.

وزادت حيرتهم حين وجدوها تنظر وهي ترتجف لعِدَّة الهاتف جاحظة العينين، حتى سمع بعض العمال (الريس عز) وهو يتمتم:

- الله يحرق أبو التليفون ع اليوم اللي اخترعوا فيه التليفون.

وبعد أن قرَّر (الريس عز) فض الزحام وأمر كل عامل بالذهاب لماكينته، وأن الأمور أصبحت على ما يرام، بقى هذا العامل الراوي للقصة والذي دفعه الفضول وقرَّر أن يسأل رئيسه عما سمع، فأجابه:

- أبدًا... ده أنا باقول يمكن جالها خبر ع التليفون كده ولا كده ضايقها...شوية كده وتفُوق وتقدر تتكلم وتقولنا إيه اللي حصل... اطمن انت بس وروح شوف شغلك يالّا كفاية العشر دقايق دول اللي اتعطلناهم...انتوا ما صدقتوا تزوغوا م الشغل.

- العامل: تمام يا ريس... أنا أصلي بس سمعتكم بتتكلموا عن مكالمة الساعة...هي إيه مكالمة الساعة دي يا ريس عز.

- -الريس عز: جرى إيه يا ابني !!...هنسيب شغلنا ونفكر في الهبل ده؟!

- العامل: معلش يا ريس عز...أصل الجو بصراحة في المصنع بقاله كام يوم ملبش وغريب.

- الريس عز: جَو إيه اللي ملبِّش وغريب؟!

- العامل: لا لا مفيش حاجة...ما تاخدش على كلامي يا ريس.

- الريس عز: وَلَه...هتِستهبل...فيه إيه؟!...انطق وقول علطول.

- العامل: أصل يا ريس...أنا والواد بخاتي وحسن وبنداري بقالنا كام يوم بنشوف آآآآ....

- الريس عز: بتشوفوا إيه؟

- العامل: شوفنا اللهم احفظنا.

- الريس عز: إنتوا باين عليكوا اتهَبَلتُوا...مش عيب ياض يا شحط منك ليه تِسبوا شغلكم وتقعدوا ترغوا في الهبل ده.

- العامل: يا ريس عز...صدَّقني ده مش هبل... أنا شوفته في وقت وكل واحد منهم شافوا في حتة تانية ووقت تاني...بس أكترية الوقت بيكون عند الحمامات.

- الريس عز: ماشي يا عبيط منك ليه...شوفتوا إيه بقى؟!

- العامل: عيل صغير.

- الريس عز: نعم؟!

- العامل: عيل صغير والله... بس شكله يلَبِّش بلد باللي فيها.

- الريس عز: إزاي يعني؟!

العامل: واد شكله غريب كده..لون وشه مدِّي على أزرق تحسُّه مخنوق وحاولين رقبته دم وماشي مبرَّق عينه علطول.

- الريس عز: ناقص تقولي ورجله رجل معزة...إيه يابني اللي بتقوله ده...إنتوا دماغكو باظت م الفرجة على أفلام القناة التانية الأجنبية..يالَّا ياض بلاش هبل وكلام فاضي...شوفوا شغلكو وبلاش رغي في العبط ده.

لم يكترث الريس عز بما قاله العامل، إلا حين التفت إلى (عايدة) فوجدها ازدادت خوفًا وارتعاشًا بعدما سمِعت كلام العامل حرفًا حرفًا.

فراح يهدئ من رُوعِها ويقرأ على رأسها بعض آيات القرآن، ويُطالبها بالثبات حتى يأتي موعد الذهاب ونهاية دوام العمل ليأخذها ويوصلها إلى بيتها.

(الريس عز) لم يبالِ بما حكاه العامل ليس فقط لأنه شخص عملي بسيط لا يعرف سوى صوت الماكينات والعمل، ولكن أيضًا؛ لأنه لم يستمع لتفاصيل أدق من حكايات العمال عن الطفل الصغير منسدل الشعر أسوده، والمائل في لون بشرته للزرقة حين ظهر لأحدهم في حوض الحمام رأس دون جسدٍ.

وحين ظهر للآخر قابعًا خلف باب المخزن في ظلمة الليل.

وللثالث في باص العمال حين ظل العامل آخرًا، ورآه يجلس في الكنبة الأخيرة وحده فصرخ واستنجد بالسائق ليجعله شاهدًا فنظر الأخير ولم يجد شيئًا!!

الساعة الآن العاشرة مساء...حانت ساعة الرحيل...وتوقُّف ماكينات العمل.

الآن يستعد عمال الوردية للذهاب، متكدسين على حمامات المصنع للاستحمام وتنظيف أيديهم من شحم الماكينات.

وهاهي باصات العمال تصطَف استعدادًا لركوبهم بعد يوم طويل شاقٍّ، لتنطلق واحدة تلو الأخرى، كاملة العَددِ.

فيسترخي الجميع مستمعًا إلى إذاعة أم كلثوم في آخر فقرات اليوم، حتى يمضي كلٌّ إلى بيته.

الآن... دقت الثانية عشرة...إنه منتصف الليل...مملكة الظلام والسكون.

الآن يحتل السكون المصنع حيث خلا من موظفيه وعُماله، ولم يبقَ سوى حارسي الأمن على بوابتيه الخلفية والرئيسية للمصنع الكائن وسط الزراعات والغيطان.

كانت البوابة الرئيسية تطل على الطريق العام الذي يسمح بعبور السيارات الكبيرة والباصات.

أما البوابة الخلفية فكانت تطلُّ مباشرة على ترعة متفرعة من الرَّيَّاح المنوفي، ولا يفصل بين البوابة والترعة سوى ممر ضيق بالكاد يكفي لكي يسير فيه اثنان أو راكب على حمار أو جاموسة

يجُرها صاحبها.

هذه المسافة البسيطة كان لها دور في حالة الهلع التي أصابت حارس الأمن جراء الخروج الدراماتيكي المهيب لشبح الطفل من مياه التُّرعة مُتجهًا نحو حارس الأمن وسط ظلام دامس وضوء بسيط للقمر.

فبماذا ستجدي صرخات حارس الأمن وهو يحاول الهروب من طفل لونه أزرق ذي أنياب فاغرًا فاه؟

ومَن سيتخيل المشهد في الصباح حين يلتف أهل القرية والضابط وغفر نقطة الشرطة حول جثة هامدة غارقة في دمائها بجانب أرجيلة لا زالت ساخنة وكرسي خشبي مكسور؟!

تابعونا في الحلقات القادمة

هنا انتهى نص الحلقة الرابعة من سلسلة (الناجي الوحيد) المنشورة في جريدة الأهرام ثم حدثت عدة مفارقات غريبة توقَّف على إثرها النشر لعدة أسابيع وظل القراء يتساءلون عن بقية الحلقات وبقية الأسرار حول عائلة (القاضي) المنكوبة ومصير عماد الناجي الوحيد.

هذه المفارقة كانت اختفاء الصحفي محمود بدر الدين نفسه من المشهد تمامًا صبيحة يوم نشر الحلقة الرابعة.

ثم عودته بعد أسبوعين كاملين، انقلب فيهما الوسط الصحفي رأسًا على عَقِب، وأصبح حديث الشارع هو اختفاء الصحفي الذي يكتب سلسلة (الناجي الوحيد) مما زادها أهمية وبدأ الناشرون ومنتجو السينما يتكالبون على الأهرام لأخذ وشراء حقوق نشرها في روايات وكتب وأفلام.

ولكن الجريدة بأصغر محرريها حتى رئيس تحريرها لم ينشغل سوى بحادثة اختفاء (محمود بدر الدين).

ولماذا هذا الصحفي بالذات؟

وهل لاختفائه علاقة بقصة عماد الدين القاضي؟

هذا ما ذهب إليه المحلِّلون والصحفيون والناس فليس هناك تفسيرٌ آخر لاختفائه مما دفع الأعين للتوجُّه نحو (عماد) وأين هو؟ وماذا كان وقع اختفاء محمود عليه؟

ظل (عماد) قابعًا في المستشفى، دون جديد، وذكر طبيبه ومدير المستشفى في تحقيقات الشرطة وحوارات الإعلام أنه اندهش وأصابته الصدمة ولكنه ما لبث أن عاد لطبيعته غير المكترثة بعد يوم واحد من خبر اختفاء الصحفي.

كل ما ذكره أنه قال: ده كنت ما صدقت لاقيت حد ارتاح له وأفضفض معاه عن اللي جوايا!!

أسبوعان...

أسبوعان فقط مرّا وحدثت المفاجأة

ظهر مجددًا محمود بدر الدين في سابقةٍ لم تحدث من قبل وكان تبريره أبسط بكثير من بشاعة فكرة اختفائه لدرجة أن قراء الجريدة والرأي العام اتَّهموه واتهموا الجريدة بالاستخفاف بالرأي العام والكذب في محاولة للفت الأنظار وعمل دعاية مكثفة ومضاعفة من أجل مزيد من النسخ المباعة.

ولكن محمود أبدى اعتذاره وتعرَّض لجزاءات وإجراءات عقابية من الجريدة بسبب تغيبه بعذر غريب ولا يتواءم مع غرابة الاختفاء.

حيث أكد أنه تعرض لإعياء شديد داهمه ثم طفح جلدي غريب وسريع الانتشار فاضطر للهرب في مكان بعيد وبيت خالٍ يملكه أحد أصدقائه بعد أن التبس عليه الأمر بأنه مرض الجذام،

وبمجرد أن بدأ يتحسن ويتماثل للشفاء خرج للحياة وللناس من جديد.

كان هاجس (محمود) طوال فترة إعيائه هو أنه يدفع ثمن خيانته لعماد ونشره لحكايته بعد الحلقة الثالثة والأخيرة وأن لعنة هذا الرجل وهذه القصة الملعونة أصابته.

فقرَّر عدم استئناف النشر لسلسلة (الناجي الوحيد) وأبدَى قلقه وخوفه لزملائه ولرئيس التحرير وعدم رغبته في زيارة عماد مرة ثانية حيث بات راسخًا لديه أن ثمة لعنة تُصاحب هذا الرجل وكل من يتصدى لحكايته الملعونة.

ولكن بضغط رهيب من رئيس التحرير وزملائه وآلاف الرسائل التي أصبحت تنتظر هذه السلسلة صباح كل سبت..

وبعد أن علم وتأكد من مدير المستشفى أن المرضى لا يقرءون الصحف ولا يطالعونها وغير مسموح بدخولها لهم فتأكد من استحالة علم عماد بأن أسرار عائلته لا زالت تُنشر.

رضخ محمود وعدَل عن قراره وقرَّر استئناف السلسلة ونشر مزيد من الأسرار.

وجد محمود نفسه بين شِقَّي رحًى..

إراء الثروة والشهرة في كِفة ولعنات وغضب عماد في كِفة أخرى.

هل يُكمل السلسلة ويستجيب لنداءات الشهرة والأضواء وحديث المنتجين السينمائيين والمخرجين والناشرين ويتحمل لعنات وغضب (عماد) ولعناته؟

أم يغلق هذا الباب برُمته ولم يولِّ ظهره لتلك البوابة الملعونة؟

اتخذ محمود القرار

وذهب لمقابلة (عماد) لحصد مزيد من الأسرار!!

- حمد لله ع السلامة

قالها عماد القاضي بابتسامة ساخرة مُخيفة مرحبًا بمحمود ثم انخرط في نوبة ضحك غريبة،

ضاعفت خوف محمود ولكنه قرَّر الثبات والاتزان في مواجهة عماد.

ورد بمنتهى الهدوء:

- ازيك يا أستاذ عماد... وحشتني...يا ترى أنا وحشتك؟

- قلت لك قبل كده إنت الوحيد اللي بتسمعني وبتصدقني... والوحيد اللي حكيت له على أسرار كتير في الحكاية.

- ويا ترى فاضل لسه عند كلام تقوله وعندك أسرار عايز تقولها ولَّا خلاص كده؟

- تِفرِق معاك؟

- لا تفرق معاك انت...أنا راجع لك علشان حسيت إنك محتاج حد يسمعك... وعارف إنك مستحيل تحكي حقيقة اللي حصل لحد.

- آآآآآآآه حلوة دي...عجبتني كلمة حقيقة اللي حصل!!

- أنا معاك يا أستاذ عماد..أنا أخوك الصغير... وصاحبك الوحيد...إحكي...إحكي وما يهمكش...أنا رجعت من الموت علشان أسمعك.

في رد فعل غريب، قام عماد وترك محمود وحده وانصرف لداخل العنبر ثم قال للممرض مشِّي الجَدع ده من هِنا مش عايز أشوفه تاني.

وفي الصباح تلقَّى محمود مكالمة في الجريدة من مدير المستشفى قائلًا:

- أستاذ محمود من فضلك الحقنا وتعالى...عماد في حالة سيئة جدًّا وفي حالة هَياج غير عادية...وعايزك وبيقول هاتوا لي الصحفي...إحنا اديناله حقنة مُهدئة وهينام لحد ما تشوف هتعمل إيه؟

بعد ساعة واحدة كان محمود في حديقة المستشفى وعماد يجلس أمامه وكأنه تحت تأثير مخدر وبدأ يحكي المزيد من الأسرار.

لاستكمال السلسلة وكتابة (الحلقة الخامسة) المثيرة تحت عنوان: تعويذة النفاذ والخلود

الحلقة الخامسة
العودة لفيلا العجمي

الأهرام مايو ١٩٨٤

الآن أصبحت وحيدًا... لدىَّ ثروة كبيرة مترامية فيلَّا العجمي واحدة من كثيرٍ منها

وبالطبع فكَّرت وقرَّرت بيعَها، فهي سبب كل النكبات، ومنها بدأت اللعنة ثم تفاقمت وانتشرت

فكان علىّ أن أتوجَّه صوبَ الفيلّا لأول مرة بعد اليوم المشئوم بعد أن قررت بيعها، وعثرت على مُشترٍ وافَق بالسعر المناسب.

كنت أحمِل همَّ تلك الخطوة الرهيبة، إذ كان من الصعب عليَّ بعد كل تلك الصدمات أن أعود إلى منبع وأصل تلك الدوامة مرة أخرى.

ولم أكن أعلم أني مُساق لمصير حتمي وتحوُّل كبير في حياتي أصعب بكثير مما مضى.

بصعوبة وضعت المِفتاح في الباب القديم الذي اعتراه الصدأ، ليفتح بذلك الصوت المخيف الموحِي بالقِدَم رغم أن ما حدَث لم يمر عليه الكثير من الزمن، لكن يبدو أن المكان يشيخ ويهرم كأصحابه جرّاء تعرضه لأهوال.

وقفت وكأني مختطَف ذهنيًّا في مدخل الفيلَّا وحيدًا أنظر إلى أركان البيت من الداخل، وغير مصدِّق ما آل إليه، أحاول أن أقنع نفسي بأن هذا المكان يومًا ما كان مأهولًا بالبشر والحركة وعبث الأطفال وضحكاتهم وليالي السمر والمرح.

الآن غدا البيت مكسوًّا بلون الغبار البرتقالي وبيوت العنكبوت تحتل الزوايا.

تقدمت بخطوات هادئة حذرة؛ لأن المنظر بشكل عام غير مشجع على الدخول، ويبعث على الكآبة، وتفوح منه رائحة عفَن تُثير التقزُّزَ.

أخَذت القرار الشجاع وصَعِدت للدور العلوي حيث مكتب والدي من الأوراق والمستندات التي تثبت ملكية الفيلا، وغير ذلك من العقود الهامة التي سأحتاجها للبيع.

كانت غرفة المكتب مظلمة رطبة كريهة الرائحة، كأن نوافذها المغطاة بالستائر عيون تئن خوفًا مما تراه وتسمعه كل يوم بداخلها.

دخلتُ بثقة واضعًا يدي على أنفي، وتقدَّمت نحو المكتب بشيء من السرعة لرغبتي في إنجاز مهمتي سريعًا والحصول على مرادي، ولم أحاول أيضًا أن أسألَ نفسي ما سر هذه الرائحة الكريهة.

جلست على المكتب، وشردت لدقيقة استرجعت فيها ذكرياتي الصعبة مع والدي، وكيف كبت رغبات عديدة بداخلي.

وأنا أقلب في الأدراج كنت أقلب سنوات حياتي مع الكابتن ضياء الدين القاضي، حتى سمعت

صوتًا أجبرني على التوقف والتسمر في مكاني مذعورًا.

كان الصوت واضحًا جليًّا لا مِراء فيه يأتي من الخارج.

نعم لا مجال للإنكار، إنه صوت أحد ما يصعَد عَبْر الدرَج ببطء، هاهو صوت وَقْع الأقدام على السلالم الخشبية العتيقة، وليس أمامي بُدّ من الخروج لملاقاته خلال ثوانٍ معدودة.

هنا قد يجنح ذهنه نحو سيناريوهين، أحدهما تفاؤلي عقلاني حين أقنع نفسي أنه غفير الفيلا المجاورة قد وجد الباب مفتوحًا فدخل.

والآخر غير تفاؤلي بالمرة، وقد كان حين خرجت من الغرفة ومنها إلى صالة صغيرة بين الغرف، ثم وقفت شاخصًا أمام الدرَج الخشبي حيث المفاجأة.

لا يوجد ثمة شخص ولا أي كائن متحرِّك يمكن أن يكون قد تسبب في أصوات الصعود!!

عند هذه اللحظة بدأت أُدرك أن الأمر أكبر من مجرد خريف بيت كئيبٍ هجَره السمر والأهل والأحباب، وقرَّرت أن أعتبر ما سمِعته من قرع خطوات شخص ما يصعد على السلم مجرد تهيؤات وهلاوس ناتجة عن حالة الاختناق والتقزُّز من المكان.

عُدت عازمًا إلى غرفة المكتب وواصلت البحث عن الأوراق وعقد الملكية.

لأجد مفاجأة أخرى في انتظاري، ولكن هذه المرة سبقني صاحب الخطوات وكان في انتظاري جالسًا على الكرسي أو بمعنى أصح في مكانه القديم.

إنه الزائر الذي لم أتخيل حضوره مهما جنحت بخيالي!!

هاهو والدي الكابتن ضياء الدين يجلس على كرسيِّه وهو عاقد يديه واضعهما على المكتب، والدم يَقطرُ من أعلى رأسه وينظر إلى ولَدِه نظرة صارمة تحكي الكثير.

فركت عينيّ مرارًا وتكرارًا لعلها هلاوس بصرية ولكن صورة أبي لا تتقشع.

وعلى الفور هرعت نحو الباب وفي بالي المشهد الشائع والشهير في كل أفلام الرعب وهو أن الباب سيُغلق وحدَه، وهذا ما حدَث.

الآن لا مهرب...

بقيت ملتصقًا بالحائط لا أقوى على الحركة أتصبَّب عرقًا وأتنفس بصعوبة جاحظ العينين، تلك الحالة التي ازدادت حين وجدت أبي على نفس نظراته لا يرمش ولا يغيرها.

ثم قام من مكانه متجهًا نحوي وأنا أنصهِر حرفيًّا، ولم أجد أمامي سوى صرخات الاستنجاد بأعلى صوت حتى تحشرَج ثم انحبس تمامًا ووالدي يقترب أكثر.

لم أدرِ ما حدَث، كل ما أتذكره أنني غبت عن الوعي قبل أن يلامسني أبي خلال اقترابه وسقطت مغشيًّا عليَّ.

هذا ما فسّرته بعد عشر دقائق من سقوطي حين استفقت وبصعوبة حملتني قدماي، وفَهمت أن

الحصول على عقد الفيلا لبيعها أمرٌ لا يُرضي أبي فأرجأت الفِكرة مؤقتًا أو على الأقل لأفكِّر في بديل آخر.

خرجت فورًا من غرفة المكتب ونظرت سريعًا لأبواب الغرف ولم أفكِّر مطلقًا في الاقتراب منها أو حتى إطالة النظر.

ولكن يبدو أن نداءات أخرى أجبرتني على الوقوف في مكاني، حين سمعت مَن ينادي عليَّ بصوت حنون أعهده من قبل وتألفه أذني، إنه صوت أُختي، نعم هذا صوت أختي مريم.

كنت قد اشتقت إليها وافتقدتها كثيرًا وحزنت على انتحارها ربما أكثر من أمي وأبي.

هاهي تناديني بصوت حزين خافت من غرفتها الموصدة، ودون مقاومة وجَدتني مُنساقًا نحوها ممسكًا بمِقبَض الباب وفتحته ولكن هذه المرة مستعد لأقصى المفاجآت المخيفة، وأهَّلت نفسي أنني مؤهل الآن لمشاهدة أشباح حقيقية.

الآن... ثمة من ينام في الفراش متدثِّرًا بالغطاء حتى رأسه، بل ويعلو صوت أنفاس نومه، كعلامة على استغراقه في نوم عميق.

ماذا عساي أن أفعل الآن؟!

هل عليَّ أن أتقدَّم لأرفع الغطاء عن أُختي وهي نائمة أم أفر هاربًا وأطوي خلفي كل هذا؟!

كالعادة اخترت الحل الأصعب فأحْظَى بمصيرٍ من اثنين؛ إمّا أن أعرف المزيد من أسرار تلك الفترة الملتبسة أو أن ينخلع قلبي فينهار من فوره وينتهي كل شيء فأرتاح.

وفي لحظة واحدة رفعت الغطاء، هنا تأكدت تماما أنني أُصبت بالفصام العقلي، إذ أرى الأموات في اليقظة دون تلبيس أو تشويش.

ولعل يقيني بهذا هو سر استسلامي وانهزامي وحالة البله والوجوم التي أصابتني وأنا أرى أختي نائمة أمامي ثم تصحو وتلتفت لي فجأة بعينين حمراوين وبعصبية مُفرطة وابتسامة مُرعبة تكشف عن أسنان سوداء لا تليق بشخصية أختي في الحقيقة.

ثم تنهرني بصوت خشنٍ، رخيمٍ غضوب خارج من أعماق الجحيم مُتحدثة بلغة غريبة ليست إنجليزية ولا فرنسية، ولكن تشبه العِبرية والتركية في تعقيدات حروفها.

هذه المرة حملتني قدماي لا للخروج فقط ولكن للركض بسرعة خارج الغرفة قبل أن ينخلع قلبي من مكانه من فرط الخوف.

وفي طريقي، للدور السفلي ومِن ثم للباب لمحت سريعًا شيرين زوجتي واقفة على باب إحدى الغرف ولكني لم أقف لثانية حتى أتبين أو أتأكد.

أخيرًا وصلت لباب البيت وقبل أن أفتح لأخرج، سمِعتها جلية واضحة لا مراء فيها بصوت أمي ولكنه كفحيح الأفعى:

- عماااااااااااااااد

لقد اكتمل الجمع العائلي حين نظرت خلفي لأجدَ أمي جالسة في الصالون وتشير إليَّ بكلتا يديها أن تعالى واقترب.

وفي الدور العلوي يقف أبي وأختي وشيرين وبكل تأكيد أبَى مِقبض الباب أن ينفتح لأقف في مواجهة عائلتي الكريمة.

لماذا ينظرون لي هكذا؟!

هل أذنبت حين اختارني القَدر التعيس للبقاء وحيدًا فأعاني من فراقِهم جميعًا بهذا السيناريو المرعب؟

هل عليَّ أن أدفع ثمن كوني (الناجي الوحيد) من هذه المذبحة؟

وكيف بقيت صامدًا دون أن أفهم بالضبط حقيقة ما حدَث إلَّا بعض المعلومات والتفسيرات حول انتقام الخادمة فاطمة لأبيها من عائلتي؟!

لماذا أنا تحديدًا هنا وأنتم في العالم الآخر؟

أسئلة كثيرة جالت في رأسي خلال دقيقة واحدة ولم أنتبه فجأة أن البيت خالٍ من حولي والباب مفتوح من خلفي وعليَّ الآن أن أخرج وأعتاد على زيارات كثيرةٍ من هذا النوع.

وقبل أن أغادر رن جرس الهاتف القابع في الصالون فظللت أنظر إليه وأنا أعِي جيدًا ماذا حاق بي وبعائلتي من وراء هذا الشيء.

ظل الهاتف يرن ولا يتوقف.

وأنا في مكاني لا أبرحه، حتى قرَّرت أن أتعامل بطريقة جديدة مع ما يحدث لي، وأبادر للبحث عن أسباب أخرى ميتافيزيقية لفهم ما حدَث لعائلتي بخلاف انتقام الخادمة.

طالما أن اللعب بدَا مع أشباح الموتى جهارًا نهارًا إذن فأهلًا بعالم الماورائيات ما دام سيبوح بأسرار جديدة حول ما حدث لعائلتي.

لا زال التليفون يرن...

أغلقت الباب وتوجَّهت عازمًا نحو التليفون ورفعت السماعة

لأستمع لما يوحَى..

تابعونا في الحلقات القادمة

الحلقة السادسة
الضلع الناقص

الأهرام مايو ١٩٨٤

عزيزي القارئ... لا زلت على شغَفك لمعرفة المزيد من الأسرار،
وخفايا عائلة بأكملها اندثر أثرُها بين ليلة وضحاها.

هذا ما يعرفه الناس أمّا ما اكتنف من السر بيني وبين نفسي وبيني وبين الشيطان فكان أمرًا آخرَ وسيناريو أبعد ما يكون عن الخيال!!

هل أنت مُستعد عزيزي القارئ لتعرف من الحقائق ما يُفزعك ويُحير عقلك؟!

إليك الضلع الناقص الذي تكتمل به الصورة، والجزء المفقود الذي تتبدَّى به الحقيقة البشعة والأبشع أن الذي يرويها لكم هو أنا

فاقرءوا...وتجلَّدوا

الأولى

بطبيعة الحال..العودة من المصيف وعطلته يُصيب بالكآبة.

تلك حقيقة جميعنا يعرفها...ولا زالت ذكرانا حاضرة حين نعود من الإسكندرية أو العجمي أكتافنا متسلخة وملابسنا المتسخة تملأ حقائبنا، ونحمل همَّ لحظة دخولنا البيت عصرًا، بلا مهرب من برنامج الدكتور مصطفى محمود قرب المغرب بموسيقى تتره الكئيبة، وكذلك عُلب التونة والسردين أو الجبن بالبطيخ كغداء سريع تُقرره الأم بحجة أنه ليس هناك طاقة ولا وقت للطبخ.

فهو بكل الأحوال يوم قاتِم كئيب كونه جاء بعد أسبوع أو عشرة أيام من البهجة المتواصلة وكسر النمطية والرتابة وانطلاق البحر وسهرات السَّمَر الصيفية.

هكذا كان يوم أبي (الكابتن ضياء) وأمي الحاجة (لطيفة) حين عادا من عُطلة المصيف الغريبة، وضاعف من حِدة هذا الشعور بالكآبة ما لقياه من خوف وهلَع ومواقف مريبة في فيلَّا العجمي.

وبمجرد عودتهما للبيت دخلا عالم الشرود والصمت، والتفكُّر فيما سمِعه أبي من مكالمة الساعة

لم يستطع أبي مضغ الطعام وراح يقلب الملعقة في طبق الشوربة بمَللٍ وهو شارد، مما أجبر أمي على قطع شروده وسؤاله

- لطيفة: ضياء....يا ضياء....ضيااااء.

- ضياء: هاااا....إيه فيه إيه؟

- لطيفة: مالك؟...سرحان وما بتاكلش ليه؟

- ضياء: لا مفيش...بس مش شايف إن انتي كمان بتاكلي...وبيتهيألي الجو عمومًا مش لطيف أوي يعني علشان نفس الواحد تكون مفتوحة؟!!

- لطيفة: طب كنت قلت بدل وقفتي في المطبخ علشان أعمل غدا.

- ضياء: لطيفة... أرجوكي...ما تبدأيش...أنا مش ناقص.

- لطيفة: مالك طيب ؟...فيك إيه؟

- ضياء: يعني كأنك مش معانا مثلًا...ولا شايفة رجعنا ازاي؟...ولّا الأجازة ختمت بإيه...مش شفتي بعينك اللي حصلنا...ده غير اللي كا....

(ثم صمت فجأة ولم يُكمل حديثه)

- لطيفة: غير إيه؟... قول يا ضياء فيه إيه ريّحني...ما تشيلش الهم لوحدك...هو انت تعرف حاجة أنا مش عارفاها؟!!

أعتقد أن أبي لم يُرد إخبار أمي وتلويث رأسها البريء بمخاوف لم ترها أو تعترض طريقها، فيحكي لها مثلًا عما حدثته به الساعة الناطقة فتغير فِطرتها وأنماطها الثابتة في التفكير.

- ضياء: ولا حاجة...مفيش...ما تحطيش في بالك...شيلي الأكل أنا أكلت خلاص...اعملي لي فنجان قهوة....أنا هاقعد شوية في البلكونة.

- لطيفة (بحسرة): حاضر...لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم يكن أحد من الخادمات موجود معهما إذ منحتهما أمي إجازة يومين بعد المصيف للراحة بعد مجهود شاقٍّ دام شهرًا كاملًا، فقامت تصنع فنجان القهوة بنفسها، وهي تكتُم مخاوفها وقلقها على زوجها وابنتها كذلك.

فراحت تحدِّث نفسها بنية أن تتصل بها على تليفونها المنزلي بعد أن تعد القهوة للكابتن (ضياء)، وتصلي المغرب.

فنادت من بعيد وهي في المطبخ على زوجها قائلة:

- طب صلي المغرب بقى علشان تبقي براحتك عبَال ما أعملَّك القهوة... لأني عارفة قعدة البلكونة دي هتطول والفرض هيروح عليك.

سمعها أبي ولم يرد عليها متعمدًا، وراح يشعل سيجارة من أخرى وهو يتأمل الشارع، ولم يكن يعلم أن ما قالته أمي له هو آخر مرة يسمع فيها صوتها تحدثه.

كم يحب الكابتن (ضياء) بلكونة بيته الواسعة المليئة بأحواض الزهور، والمقاعد البامبو، فهو اعتاد أن يشرب قهوة الصباح والمساء فيها، وأن يلجأ إليها حين يحزبه أمرٌ، ولم يكن يعلم كذلك أن أكثر مكان يحبه ويرتاح فيه، هو المكان الذي سيلقَى فيه حَتفَه!!

لم يجد من الوقت ما يكفي للتعجُّب أو الهلع أو حتى الصراخ والاستنجاد حين شعر بمن يرفعه ويحمله من ساقيه أسفل وسطه، ثم يدفعه ويرمي به نحو العالم الآخر.

ولعله لم يتمكَّن من التفكير فيما يحدُث لأكثر من ٥ ثوانٍ هي عُمر سقوط جسده من الدور العاشر حتى رصيف العمارة الصُّلب البارد، فتحول إلى كومةٍ من العظم المهشَّم واللحم والدم المُسال.

إذن...قُتل أبي بفعل فاعل ولم يكن انتحارًا

كنت أنا هذا الفاعل... نعم أنا.

استطعت اختراق البيت والدخول بسهولة، والاستماع لكل حوارهما كنت أعرف جيدًا قيمة البلكونة للكابتن (ضياء) ومتى يحب أن يدخلها ويجلس فيها.

وأعرف أيضا كيف أختفي وأتوارى في ثوانٍ، من البلكونة للداخل، ثم أعقب ذلك دخول أمي وهرولتها على صراخ وجلبة وضوضاء صادرة من الشارع جراء التفاف السكان والحارس والمُشاةِ على جثة أبي المحطمة.

وبمجرد دخول أمي كانت لحظة خروجي من الشقة إلى خارج العمارة متلفحًا بكوفيةٍ وسط زحام الناس في الشارع.

إذن لم تكن نهاية الكابتن ضياء انتحار ناتج عن اكتئاب ذهاني كما ذكر الطِّب الشرعي، ووفقًا لشهادة أمي وشهادتي وطارق زوج أختي حين حكينا عن تردِّي حالته النفسية وشكواه من الاكتئاب قبيل وفاته

الثانية

هذا الشعور القاتل هو ما داهم (مريم) حين تضاعف شعورها بالخوف والوحدة والغُربة بعد أن علِمت بانتحار أبي.

وضاعت كل جهود زوجها (طارق) في احتوائها وتهدئتها، فكيف لصنبور مياه أن يُطفئ نيران ضارمة في مبنَى ضخم ذي طوابق متعددة.

وقد كان هذا ما استوعبه (طارق) جيدًا، حيث وصل إلى درجة اليأس وشعَر بصعوبة المهمة، أو على الأقل أن الأمر يحتاج إلى محاولات عديدة لتهدئتها ومساعدتها في تجاوز مخاوفها.

لذلك قرَّر أن يبتعد ويتركها تبكي وتُخرِج ما في نفسها المَكْلومة، ونزل في هلعٍ وحزن بعد سماع خبر انتحار أبي متجهًا إلى بيت أمي ليؤازرني ويفهم كيف انتحر حماه.

مرت الساعات و(مريم) وحدها تغفو وتصحو بفعل الكوابيس، وراح مفعول الحقنة المهدئة واستيقظت تمامًا فلم تجد (طارق) حولها ولا أيًّا من أولادها.

فانتابتها حالة هلَع غريبة فراحت ترتجِف في غرفتها، ولم تَعِ تمامًا بمَن يحوم حولها ويأتيها من الخلف ويكَمِّم فمَها فلا تصرخ، ثم يُحكِم وضع سكين المطبخ ذي الشفرة الحادة على مِعصمها الأيسر ويشق الوريد بأريحيةٍ تامة لا يملكها إلا سفاح لا يكترث بالدم.

كنتُ أنا هذا السفاح... نعم أنا.

ثم رفَعتُ بصمات كفها الأيمن على السكين وألقيته بجانبها، ليبدو الأمر على أنه انتحار لا يشك فيه أحد من سيدة يشهد كل من حولها بسوء حالتها النفسية قُبيل موتها.

الثالثة

الوحدة..كلمة حروفها موجِعة من مجرد نُطقها،

حتى جرسُها الصوتي مؤلم، يحك شفرته الحادة في حواف الروح.

ذلك هو ما شعرت به أمي الحاجة (لطيفة) وهي تعيش ولو ساعات بعد انتحار زوجها، حتى خادمتها القديمة عشرة العمر (فاطمة) ذهبت ولم تعُد واختفت اختفاء مريبًا.

أمي كانت واسطة العقد بين أولادها وأحفادها، كبيرة العائلة التي ترفُل في نعيم البهجة والأنس والمرح، وتتلذذُ وتستمتع بما يُسعد أي جدة تُجاه أحفادها حين تختار أن تقشر لهم البطاطس بيدها وتقليها لهم في الزيت بناء على رغباتهم التي دائمًا ما تَلقَى ترحابًا في بيت الجدة أكثر من بيوت آبائهم.

لقد ماتت أمي حين انتقلت من ضوضاء المرح وضجيج الأحفاد، وثرثرة الخادمات، وحديث قهوة الصباح والمساء مع الكابتن ضياء إلى هذا السكون الموحش الذي يُشبه الموت البطيء.

بعد وفاة أبي بيومين أصرت أمي على البقاء وحدها وعدم الجلوس عند جارتنا مُدعية أنها لا

تريد رؤية أحد ولا تقوى على التحدُّث.

الآن ثمة زائر..

إنه جرس الباب يدق.

قامت أمي ببطء وإحباط لتفتح الباب لتبدأ الدقائق العصيبة على كلينا.

وحينما رأتني لم ترد بكلمةٍ، بل أدارت ظهرها لي وعادت إلى الأريكة مسترخية عليها دون نوم

كانت حينئذ مهمتي سهلة كي أطل على وجهها من الوضع المعكوس وأطبق عليه بالوسادة بهدوء وقوة، وفي أقل من دقيقة حلَّت أمي على أبي ضيفة عزيزة.

ظلِلتُ أنظر لوجهها الحنون لمدة دقيقة كاملة وأتأمله وأتحسَّسه بيدي وضبطت دمعة خافتة تَسيل على وجنتيَّ.

وقبل أن أمضي جئت بعُلبة دوائها من غرفة النوم وأفرَغتها في كيس وأخذته معي لأرميه خارج البيت ثم أبقيت حبة أو حبتين على الأرض ومعهم الزجاجة فارغة بجانب معصمها البارد نافر العروق.

قبل ٣٠ عامًا..
(عماد المبقع)

عزيزي القارئ... لعلَّك من فرط المفاجأة لا تعِي حجم معاناتي التي تمثَّلت في قتل أسرتي والتآمر عليها دون ترتيب أو قصدٍ مع (الغبار الأسود) لضرب هذه العائلة.

لا تتعجب... فرغم أني ساهمت في تسهيل مهمة فاطمة الخادمة وأعوانها في الانتقام لأبيها، ومشيت في خطٍّ متوازٍ مع لعَنَات (الغبار الأسود) للقضاء على عائلتي حيث أهلكهم هو بالرعب والشتات والخوف، وأجهزت عليهم أنا فإنني بيني وبين نفسي على الأقل أحمِل في نفسي تبريرًا لما فعلت.

منذ ٣٠ عامًا...في إحدى أحياء القاهرة الشعبية القديمة...كان بيتنا القديم في ميدان السكاكيني يضم أبي الموظف البسيط في شركة مصر للطيران وأمي وجدتي وأختي مريم.

عشت في هذا البيت طفولة مَشوبة بالحَذَر والقلق والتخفِّي والحرج.

في يوم من الأيام دخل أبي الكابتن (ضياء) بيته في تمام الساعة السابعة مساء متلهفًا، متعجلًا ينادي أمي وأختي (مريم).

- يا لطيفة...لطيفة..إنتي فين؟

- أيوا يا ضياء...بتزعق ليه؟

- مش بزعق ولا حاجة بس بسرعة لبسي مريومة علشان رايحين نتعشى مع صاحبي اللي قلت لك عليه، كان عايش في أمريكا هو ومراته بس ناس شيك أوي...

- وإيه اللي فكَّرك بيه؟

- أبدًا...هو لسَّه طيار في شركة أجنبية وراجع وناوي يستثمر فلوسه في مصر، معاه فلوس مِتَلتلة، وعجبه شُغلي ومصنعي وناوي يشاركني...وانا كلِّمته على كورسات الطيران....أومال فين مريم؟

- مريم جوه في أوضتها بتلعب بالعرايس... أنه! هو انت ما بتسألش على عماد ليه؟

- عماد بيلعب تحت كورة مع صحابه...شوفته وشاورت له.

- طب مش نقوله ييجي معانا؟!

- باقولِّك إيه؟...إعملي اللي باقولِّك عليه...أنا هاخد مريم بس... إحنا رايحين للراجل الفيلا بتاعته وبنته الوحيدة قد مريم...مش هينفع ناخد عماد.

- إنت متأكد إنه شافك...يعني مش هيتضايق لو طلع ما لاقاناش.

- ماهي أمي موجودة تبقَى تفتح له وتقوله.

- طب ما تناديله بسرعة وألبسه مش هياخد وقت.

- وبعدين يا لطيفة...اسمعي اللي باقولّك عليه...الواد لسه لازم يستحمى بدل ماهو عرقان م اللعب والكورة...وبصراحة بقى مش حابب إن أول مرة آخد فيها ولادي يشوفه وشه كده ويقعدوا يقولوا لي ماله ومش ماله...واقعد أبرر واشرح.

لم يشعرا بي إذ كنت خلف الباب حيث صعِدت متلهفًا لمجيء أبي وسمعت ما يقولان.

كان البهاق قد بدأ يعرف طريقه لوجهي منذ أن أكملت عامي الثالث، وشيئًا فشيئا راح ينتشر في وجهي كله.

ردت أمي بطمأنينة غريبة:

- معاك حق برضه... وطالما بيلعب ومبسوط يبقى خلاص...أنا هاروح ألبِّس مريومة.

لم يكن ذلك الموقف إلا واحدًا من سلسلة طويلة طفِقت تتكدس في ذاكرتي وعقلي وقلبي لم تبرح أبدًا، فتارة كنت أكذب أحاسيسي وتارة أخرى كنت أرفض الاعتراف بأن البهاق قد يكون سببًا في عُزلة مبكرة لي قد تحرمني من أجواء طفولتي ولعبي ومرحي.

لم أستطع أن أنسى يومًا أنني كنتُ أقدِّم فروضَ الولاء والطاعة لكل شِلة أتعرَّف عليها كي تكون جواز مروري إليهم.

فأنا وحدي من أذهب لأشتري لهم من المِقصَف وأتحمَّل الصعوبات والطابور الطويل، لشراء الحلويات والمشروبات لأصحابي، وبعد انتهاء الفُسحة يأخذوا مني المشتريات فمنهم من يشتمني لتأخُّري ومنهم من يأخذ مني محتفظًا بحقه في الضحك حتى الثُّمالة من تِرداد لقب (المبقَّع)!!

صرت عماد المبقَّع... كل المدرسة تناديني بهذا اللقب.

حتى أختي الوحيدة (مريم) حينما شبَّت وكبرت ودخلت المدرسة في حمايتي يدَها في يدي، مرت السنوات الدراسية ولم تستطع منع نفسها من الضحك مع زميلاتها عليَّ.

وكيف أنسى حين ذهَبت إليها لأعطيها مصروفها في الفسحة بعد أن قُمت بفك الجنيه إلى نصفين ورأيت بنفسي صديقاتها وهن يكتمن الضحك ويهمسن، مما أثار حَنَقها فلامتني على الظهور أمامهن وقالت لي:

ممكن ما تبقاش تيجي لحد فصلي...أنا هاجيلك عند الملعب؟!!

ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة، فلم يَغِبْ عن بالي يوم الضرب الذي تلقيته من والدي بالحزام بعد أن شاهد أحد الطلبة يقبل يد أختي، وهي في مرحلة الإعدادية،ودخلت معه في معركة أسفرت عن ضربي من بقية شِلته وجرحوا فمي ومزقوا قميصي وأفرغوا حقيبتي أمام طلبة وطالبات المدرسة بما فيهم أختي.

المؤلم هو أنني عرفت فيما بعد أنها أكمَلت علاقتها المراهقة مع هذا الولد ولم أستطع أن أمنعها أو أتدخَّل خوفًا من السخرية من بُهاقي أو ولا حتى أن أخبر أبي فيتهمني بالتقاعس والخذلان

فيضربني مجددًا.

وذات مرة، كنت ألعب الكرة مع أصدقائي، حيث قضيت ساعات طويلة في لعب الكرة، هروبًا من البيت، وكسبًا لرضى أصدقائي الذين بدءوا يعتبرونني محظيًّا شريطة التزامي بمركز حارس المرمَى وليس من حقِّي اللعب والجري في الملعب معهم وإحراز الأهداف.

ثم في نهاية اللعب وبعد المباريات أقوم بدوري كخادمٍ أشتري لهم المشروبات المثلجة والحلويات من الكشك.

وعليَّ أن أتقبَّل كل كلمات الإهانة ولقبي (المبقع) تحت ستار المزاح والمرح، أو أن آتي متأخرًا بعد انتهاء النكتة وهم يضحكون وليس لي أن أسألهم عما كانوا يضحكون!!

كنت أحب جدتي الوحيدة التي تنصفني، ودائمة الحنان والشفقة عليَّ إلا مرة واحدة لم تمنع نفسها من الضحك بصعوبة حين نهرتني أمي وهي غاضبة بسبب غرفتي المُتسخة وملابسي غير المرتبة على الشماعة قائلة لي: (خد يا زفت.. لبسك مبقع زي وِشَّك)

حيث انفجرت جارتنا طنط سهير، وابنتها صديقة أختي وأختي أيضًا في الضحك المثير للغيظ، وهنا آلمني جدًّا أنني لمَحت جدَّتي متلبسة بكتم الضحك، فانطبع ذلك في ذاكرتي.

لا أنكر أن أمي كانت تحبني أكثر قليلًا من أبي ولكن على طريقتها الخاصة، وتتودَّد إليَّ ولكن في غير حضور والدي وأختي.

حقًّا كنت أرى الحسرة في وجه والدي كلما عاد من إحدى رحلاته وسفراته الطويلة وهو يشاهد وجهي وجسمي وهما يتداعيان تحت شراسة البهاق الذي ينتشر ولا يرحم.

ولم يبدأ (ضياء) في معاملتي بشكل طبيعي إلا بعد تفوقي الدراسي وحصولي على المركز الأول في الشهادة الإعدادية، حينئذٍ كان أول حِضن حقيقي من والد لولده ومن أم لابنها.

حاولت (لطيفة) أكثر من مرة ادخار مبلغ من المال لإنفاقه على علاجي من مرض البهاق الذي راح يتوغل في جسمي كله، خاصة أن الأسرة في مُستهل حياتها لم تكن في عِداد الأغنياء، ولكن حماسها للادخار سرعان ما كان يتبدَّل، فتستكثر المال على فكرة العلاج وتوجهه لمآرب أخرى مثل ادخاره لمناسبات مثل رمضان أو العيد أو حين تريد تجديد عفش البيت أو شراء ملابس لقطة أو تخفيضات لمريم التي بدأ يتألق جمالها بعد التحاقها بالجامعة، وصار لها صديقات جميلات كُنّ سببًا في قرار دائم اتخذه رب البيت الكابتن (طارق) بألَّا يخرج (عماد) من غرفته طيلة وجود صديقاتِها معها في البيت لكي لا يُشاهدن وجهه.

وبالفعل كنت أظل حبيس غرفتي بالساعات حتى تنتهي (مريم) طالبة الثانوي الجميلة وصديقاتها من المذاكرة أو حضور درس في الصالون.

وحصل ذات مرة أن نهرتها حين غاظتني إحدى صديقاتها وقت أن لمحتني عند باب العمارة فضحكت، فاشتكيت لها منها ولكنها ردت علي بمنتهى البساطة والقسوة معًا:

- إنت اللي جبته لنفسك... بتخرج من أوضتك ليه.. مش بابا قالّك حِسَّك عينك تهوِّب بره الأوضة وصحابي هنا.

فلم يكن مني إلا أن أمسكتها من شعرها، من فرط غيظي، وحذَّرتها ألّا تتعامل معي بهذه الطريقة مرة أخرى.

وقد كلَّفني ذلك ثمنًا باهظًا، حين ردت لي (لطيفة) الصاع صاعين وصفعتني كفًّا على وجهي، وقالت لي بحروف وجرس صوتي عجزت أن أنساه:

- إياك تاني مرة تفكَّر تمد إيدك على أختك يا حيوان... وإلا قسمًا عظمًا لأعرَّف أبوك...أنا هاعديها المرة دي...لكن المرة الجاية هاقوله وانت عارف ممكن يعمل فيك إيه؟...فاهم؟!...امشِ غُور ما تبصليش كده بوشك ده!!

مأساة تتجسد كل يوم، وتتحول لغول يلتهم كل جميل في حياتي.

كتلة من الآلام تتدحرج ككرة الثلج لم يوقفها إلا نضج عمري أصاب (مريم) وكون (طارق) خطيبها كان أحد أصدقائي الطيبين في الجامعة.

أم لعله عرفني من أجلها...لا أعرف... المهم أن علاقتي بأختي تغيرت نوعًا ما.

وكذلك بالنسبة لأبي وأمي، حيث منعهما تقدم السن وجريان العمر واستقلالي المادي بعد التحاقي بالوظيفة من الإساءة لي.

كان ذكائي الحاد وتفوقي الدراسي سلاحي الوحيد الذي يمنحني شيئًا من القبول لدى البشر فمكنني ذلك من الالتحاق بوظيفة جيدة وراتب كبير في إحدى الشركات الحكومية الكبرى.

ولا أنسى لجوئي إلى برنامج صباحي دائم اعتدت عليه بمجرد أن استلمت الوظيفة، وهو الاستيقاظ مبكرًا قبل موعدي الطبيعي بساعة لوضع مساحيق على وجهي بنفس لون بشرتي كان والدي يشتريها لي باهظة الثمن من لندن كلما ذهب إلى هناك في إحدى رحلاته.

وكان هذا سببًا في إعجاب زميلتي في العمل بي، فضلًا عن كفاءتي المشهود بها وقُربي الدائم من مديري وترقيتي في العمل الوظيفي.

فكانت خطوبتي على (شيرين) التي لم تعرف أنني مُصاب بمرض البهاق إلا يوم الزواج، وظلت هذه الخديعة سبب في تصدُّع العلاقة بيننا، ومولّد دائم للحنق والغيظ والتحفز منها.

لاشك أن (شيرين) زوجتي إحدى تلميذات (ميكيافيلي) بإخلاص لأنها وضعت كل معاييرها النفعية في هذا الارتباط وكانت تعرف جيدًا حجم ثروة أبي التي كانت تتزايد كل يوم.

وفي وقت ما كتمت (شيرين) سري حين علمت أنني أتلقى علاجًا نفسيًّا في السر دون علم أحد من عائلتي وأبوح فيه لطبيبي النفسي كيف أن والدي يكرهني ويهددني كثيرًا بحرماني من الميراث لصالح أختي؛ لأنني على حدِّ وصفه غير مؤهل عقليًّا.

ويبدو أنها كانت تبتزني بين الحين والآخر وتهددني بفضح أمر علاجي النفسي عند عائلتي وزملائنا في الشركة

وبعد أن علِم والدي بخبر علاجي النفسي كانت أية معلومات تخص الثروة يحكيها محامي العائلة لأمي السيدة (لطيفة) و(مريم) ومع الوقت عرفت أن أبي قسم ثروته في وصية سرية لا يعلمها إلا هؤلاء الثلاثة بسبب خوفه من تبديد ثروته على يدِ ولده المريض نفسيًّا وغير السوي.

هذه هي عائلتي..عائلة القاضي

هكذا نشأتُ..هكذا عِشتُ..

تابعوا بقية الحلقات الأسبوع القادم

الحلقة السابعة
تعويذة النفاذ والخلود

الأهرام مايو ١٩٨٤

عزيزي القارئ إليك آخر حلقات هذه السلسلة التي حقَّقت ملايين القراءات وفيها آخر الأسرار الكاشفة لما توارى والفاتحة لما أُغلق من ألغاز.

لا أنكر أنني تلقَّيت صفعات لعنة مكالمة الساعة وتفاجأت بها كعائلتي لكني لم أصطدم بها ولم تتقاطع معي، بل سرنا متوازيين كفَرسَي في رِهانٍ نتبارى مَن منا يدمر تلك العائلة قبل الآخر،

وربما كان ذلك مبررًا لتلك الصفقة الشيطانية بيني وبينهم!

لقد اختار (الغبار الأسود) فيلّا العجمي وتحيَّن فرصة زيارتي وحدي لها بعد سقوط الجميع وقرَّر أن يعقد معي صفقة تبادلية لما رآه من بلاء حسن قمت به تجاه عائلتي...فمَن ذلك الشيطان الذي سهَّل له المهمة وقام بذبح ذويه من الوريد إلى الوريد؟!!

يالها من صفقة رابحة حين يتعرف الشيطان على بشر يزاحمه خِسته وقذارته!!

وبهذا كانت فكرة الصفقة أن أحصل على ٣ مكاسب:

- اختفاء البهاق من وجهي وجسمي.
- عودة هاني ابني.
- وتعويذة النفاذ والخلود.

في مقابل أن أُسلمهم روحي للأبد وأبقى على كُفري وضلالي ما حييت منفذًا كل ما يطلبونه منِّي عبر الاستماع الدائم لتعاليم (الغبار الأسود) التي يوحي بها من عالم الظلمات

الآن.. ووفقًا لقوانين كتاب (شمس المعارف) لا توجد قوة تستطيع تحجيم وإعادة (الغبار الأسود) إلى عالمه، وفي ذات الوقت لا يمكن اختراق بوابته الموصدة والآمنة حِيالَ البشر،

فقد خرج الشر ولا راد لسلطانه إلا باستثناء وحيد.

هذا الاستثناء هو ما قرأت عنه كثيرًا باسم تعويذة (النفاذ والخلود) التي حصل عليها من قبلي كثيرون باعوا أنفسهم للشيطان.

فماهو النفاذ؟ وما هو الخلود؟

النفاذ هو القوة التي يتمكن من خلالها البشر التأرجح بين عالمي الإنس والجن وهو صك من الشيطان منحه الله إياه ليهبه لأعوانه وأتباعه وأصفيائه ويستطيع من خلالها أن يؤذي الناس وبعض الجان.

وقد حصلت على ذلك..

أما الخلود فهو الوعد الموعود.. الذي يعده الشيطان وما يعدنا الشيطان إلا غرورًا!!

وهذا ما لم أحصل عليه ولم يحصل عليه أحد ممن خدعهم الشيطان وضللهم ومنَّاهم به..وهذا ما يحلُم به الإنسان العظيم الـ Homo Sapiens كي يحكم ويسيطر ويستغني ويغدو إلها لهذا الكون كما يزعم بغروره، لقد عرف (الغبار الأسود) كيف يخدعني ويمنيني بالأماني ومن ثم يحصل على كُفري البواح

صرت نظريًّا من جنس البشر...ولكني لستُ كالبشر، حيث سمعت ورأيت ما جعلني في منطقة رمادية، تللك التي لها طريقان لا ثالث لهما:

إما الجنون ثم الانتحار...

وإما التحالف وإبرام العقود مع سدنة هذا العالم على السمع والطاعة.

فهمت تلك الحقيقة من عدة مكالمات للساعة على (١٥٠ دليل) وصارت مدخلًا لعالمهم فأستمع بالساعات لما يُملى عليّ بكرة وأصيلا

شهر كامل من العزلة في ظلام (فيلا العجمي) بلا نظافة ولا صلاة ولا وضوء أتلو فيها كل آيات الشيطان وتعاويذه

وبعد أيام منح المارد تلميذه الإنسي ومساعده الجديد من جنس البشر، صكوك الشر ومصوغات السحر وفنونه لكي يضع في قائمة السحرة والمشعوذين اسمًا جديدًا، وخادمًا للجن له قدرات خاصة تليق بسيده الذي يُحركه ويدعمه ويحميه.

أعطاني نفوذًا أتنقل به بين العالمين، وعشت عامين كاملين لم أكن أميز فيهما هل أنا من الإنس أم من الجن، واقترفت فيهما الكثير من الموبقات وفرَّقت بين زيجات وأجبرت شبابًا على الانتحار

وغير ذلك الكثير..

ولكن الشيطان خدعني مرتين...

الأولى: أنه أبدًا لم يمنحني الخلود...لَم ولَن يستطع.

الثانية: أنه لم يُعِد لي هاني ابني مثلما اتفقنا في فيلا العجمي.

فبعد عدة شهور من هذا الاتفاق، قرَّر (الغبار الأسود) ذلك المارد اللعين أن يُخبرني بمكان (هاني) ابني ومصيره، ولكن ماجدوى ذلك؟!

إن كان جثة هامدة عفنة طريحةَ دُرجٍ له رقم من أدراج ثلاجة المشرحة بعد اكتشاف الشرطة ما يشبه المقبرة الجماعية للأطفال في فيلا مخصصة لتقديمهم قرابين للشيطان وتجار بيع الأعضاء!

تم اختطاف هاني منذ غاب عن البيت وخرج هائمًا على وجهه في الشارع بعد أن أصابته لعنة مكالمة الساعة فمضى دونَ أن يعرف أين يذهب؟ ولماذا؟

فتلقَّاه أحد الذين يخطفون الأطفال ويتاجرون فيهم؟!...حين كان يتم اقتيادهم معصوبي العينين، لمخزن فيلا في طريق سقارة، تُستخدم خصيصًا كمعمل لتقطيع أعضاء الأطفال، يعمل فيها عشرات الأطباء والجراحين المُعدَمين وطلبة الطب الفقراء من قسم الجراحة، ملتزمين بقانون العمل وهو:«لا أسمع لا أرى لا أتكلم». ويتعاملون يوميًّا مع أعضاء الأطفال مثلما يتعامل الموظف مع الأوراق والمستندات.

لتَصُب هذه الورشة العفنة القذرة في واحدة من أكبر عصابات وشبكات تقديم قرابين للشيطان في مصر، حيث تمنحهم جثثًا كاملة أو قطعًا لمن يريد تحضير الجان أو فتح مقبرة بعد إرضاء حارسها من الجان السفلي، وأخيرًا تقديم القرابين لـ (لوسيفير) إمام الملعونين والمرجِع الأعلى للشر وذروة سِنام الكُفر، ليسمح لهم بفتح المقابر الفرعونية وويمنحهم صكوك استخراج كنوز أثرية منها.

هكذا كان مصير ابني (هاني) ومصير آلاف الأطفال الذين تسهو عنهم عيون ذويهم فيختطفهم الشيطان للأبد ويرتوي بدمائهم الغضة ويغرس رايته السوداء بين ثنايا قلوبهم الطفلة.

- لم أخدعك.. بل نفَّذت وعدي وأخبرتك بمصير ابنك (هاني) وما جرى له.. لم أقل لك أني سأُحيي الموتى وأعيده للحياة..

قالها لي (الغبار الأسود) بلغته التي لا يفهما سواي عبر سماعة الهاتف اللعين وعبر تلك المكالمة المشئومة.

لذلك.. قررَّت أنا أيضًا أن أرواغ وأخدع وأنكُثَ عهودي معه

فاستخدمت الجزء الأول من تعويذة النفاذ والخلود وقرَّرت اللعب معه والدخول في تحدٍّ ما دمت لن أحيا أبدًا وسأموت حتمًا.

وما الشيطان إلا حفنة كبيرة من نَكْثِ العهود وتاريخ طويل من التخلِّي عن العهد؟!

إذن فلألعب معه بطريقته...

هكذا صِرت أستخدِم نفوذي في عالم الجان وطرائقي بينهم، فهم مثلنا ليسوا على قلب رجل واحد وهناك ما يفرِّق صفوفهم.

فخرجت عن نطاق سيطرته وأفقدته هيبته في عالمه ووسط جنوده وتلامذته..

حتى كانت الضربة الموجِعة حين استطعت بتعاويذ أخرى وبمساعدة قوَى أعلى منه أن أنال من ابنه وتمكنَّا من إحراقه.

في هذا اليوم جاءني في المنام أحدهم يقول لي:

لقد اقترفت جُرمًا عظيمًا... لن يرحمك الغبار الأسود... ولن تهنأ على عيشٍ، ولن تنالَ الموت فترتاح.

استيقظت من نومي في الحال.

ومنذ هذه اللحظة.. وأنا في حال مختلفٍ غير الذي كنت عليه، ولم أعد على طبيعتي البشرية ولا صرت أتمكن من طرق بوابات عالم الجن مرة أخرى.

وفقدت اتصالي بهم، فتأرجحت حقًّا بين العالمين ولم أعُدْ أفهم من أكون؟ وأين أنا؟ فلا أنا على فطرتي البشرية ولا أنا ضِمن كتيبة الشيطان فأحتكم إلى بلاطه وقوانينه لحمايتي من (الغبار الأسود).

وقبل أن أُدرك حالة التعطل هذه كنت قد فقدت المعنى لحياتي.

هنا يتبدَّى الموت حلًّا ناجعًا وخلاصًا من كل هذه المعاناة.

لِمَ لا أموت وأرتاح وينفضُّ المسرح وتُغلق الستائر وينتهي العرض؟!

لم أجدني إلا متجهًا لبرج القاهرة.

أيقونة الانتحار لدى القاهريين الذين نال منهم الاكتئاب وفقدوا معنى الحياة.

هكذا أخبرتنا الأفلام والروايات...أن برج القاهرة كما يحمل ذكريات الطفولة المرحة ومرح السائحين، فهو كذلك يمثل منصَّة انتحار مهمة تخبر العالم أن هذا الذي سيُلقي بنفسه الآن له حكاية فاسمعوها يرحمكم الله.

صعِدتُ أعلى البرج... تقدَّمت...الآن سينتهي كل شيء.

فليبحث عنِّي الغبار الأسود..وَلْيَدْعُ نادِيَه وحزبَه ورجالَه.

تمَّت السلسلة

الخوف مدخل كل الشرور...

تلك قاعدةٌ حياتيةٌ؛ لذلك فقد فَطِن كل الشياطين لهذه الحقيقة واستغلُّوها جيدًا وبنوا عليها أمجادَهم الشخصية في معركتهم الأزلية مع بني الإنسان، بل إن الخوف هو أهم وأعظم مقوم وداعمٍ لكل خُططهم في هدم الإنسان نفسيًّا وعصبيًّا ثم جسديًّا.

لماذا تأثرت (عايدة) سكرتيرة عماد في المصنع لمدة أيام بلعنة مكالمة الساعة، وهي بريئة لم تفعل شيئًا؟

لأنها خافت، ودخلت بذرةُ الخوفِ قلبَها فاقتنصتها جنود (الغبار الأسود)، حيث يشتمون رائحة الخوف كالكلاب البوليسية، ويتحركون نحوها مِن فورِهم، ويقذِفون بسهم الهِلَع داخل القلب والعقل، فيصيبُه بالشلل ويلحقه بدوائر مُفرغة، لا منطقية تحاصر صاحبها فيظل رهين وسواسه.

هكذا نفذ (الغبار الأسود) إلى قلوب الخائفين، وليس في وُسْع أحدٍ أن يسمع من مكالمة الساعة ماهو خارج النص إلا أولئك الضعفاء من تَهوِى قلوبهم من حالقٍ من مجرد سماع ما يُخالف الطبيعة.

لهذا السبب، لم تكن هناك شظايا لتلك اللعنة التليفونية عند (سماح) الفتاة التي قرَّرت الانتقام لأبيها من الكابتن (ضياء)، ولا (فاطمة) الفتاة الشعبية خادمة السيدة (لطيفة).

ينام هؤلاء بلا خوفٍ؛ لأن عقولهم لا تَسلم بما وراء الطبيعة ولا يشكون لحظة في مسلماتهم العقلية، ولا يحملون مثقال ذرة من الخرافة في أذهانهم، فهي عندهم أمر لا يحتمل النِّقاش فضلًا عن التحقق.

إنه ما يُسمى (اكتئاب المعرفة)!!

أنت في عناء بقَدرِ ما تعرف.

ولعل هذا هو سر إصابة العديد من طبقة الأغنياء والمُتعلمين، والمُثقفين بدرجات عالية من الاكتئاب، ولا يملكون تلك الطمأنينة التي يتمتع بها العوام والجهلة وأنصاف المتعلِّمين من ينامون ملء جفونهم!!

ربما كان ذلك صحيحًا، وربما لا..

لكن ما هو في حُكم اليقين، أنَّ الخائفين حتى تلتَبِس عليهم أمور الحياة وتختلط عليهم الثوابت هم شركاء الشيطان.

لم ينتحر (عماد) ولم يستطع فهناك من حالَ دون ذلك، ولم يكن يعلم أن اللعبة أكبر من أن تنتهي بهذه البساطة وأعمق بكثيرٍ من خروجه منتصرًا على ماردٍ كبير من عالم الجن يُريد أن ينتقم لولده من بشر إنسيٍّ.

لقد طالته يد (الغبار الأسود).. ولحِقت به قبل أن يُغادر في لحظة الإقلاع، وقرَّر أن يعود من جديد.

ولكن أين ذهب؟!...ولماذا تركَه نزيلًا في مَصحة نفسية ربما يغادرها ويعود للحياة آملًا فيها بعد شفائه وبعد أن بدأ يتعافى ويشعر ببشريته من جديد واكتشف أنه لم يدخل نادِي المُختلِّين عقليًّا بعد؟!

بل كيف تركه هذا المارد يهنأ بفكرة الحكَّاء البطل عبر سلسلة نشرتها كُبرى الصحف؟! وقبل ذلك يتراجع عن انتحاره، وربما يتوب فلا يمت على هذا الحال مع ربه!

هل اكتفى بتعطيل تعويذة النفاذ والخلود من قبل عالم الجن؟ أم أن له حسابات أخرى مع ذلك البشري الذي غدَر بأحدِ ملوك عالم الجان ونال من ولده؟

***

جلس (عماد) كعادته في الحديقة منتظرًا مجيء الصحفي (محمود) صديقه وأنيسه الوحيد في الحياة، وبات الممرضون والأطباء ومدير المستشفى على علمٍ بذلك، بل أدركوا تحسُّن حالته بسبب زيارات (محمود) له وما نشره عنه.

واستغل ذلك الأطباء وأوهموه بأنه سيتحسن تدريجيًّا وسيُغادر هذه المصحة حتمًا يومًا ما.

بالفعل تغيرت ملامح وجه (عماد) وانفرجت بمجرد أن رأى (محمود) قادم من بعيد يحمل في يده عُلبة بلاستيكية وبعض النسخ من الجريدة.

- إيه يا عم رحت فين؟ أسبوع بحاله ما تجيش؟!..إيه ده؟ جايبلي إيه في العلبة دي؟!

- معلش يا أستاذ عماد..أصلي سافرت البلد لأهلي كام يوم كده...وجبتلك معايا حبة قرص بعجوة أمي عاملاهم...إنت أخبارك إيه؟

- أنا تمام الحمد لله... أهو ما باسيبش الدِّكة دِي من ساعة ما باصحى لحد ما بيدخلونا تاني.

- بس أنا شايف تحسُّن ما شاء الله، وأعتقد ما باقاش فيه جلسات كهربا، هي الكام حقنة بتوع بالليل بس.

- آآه يعني...إنت بتسأل ليه عن حالتي...إنت فاكر إني هاخرج تاني من هنا؟!

- ليه لأ؟!

- ما افتكرش... أنا قلت لك مفيش معنى لحياتي...عملت فيها كل حاجة وشُفت اللي ماحدش شافه... أنا ارتحت جدًّا لفكرة إني أحْكِي حياتي العجيبة دي لحد ويعرفها كل الناس غير كده مابقاش فيه قيمة لحياتي.

- طب ليه متمسِّك بالحياة؟!...غريبة إنك ما بتفكرش في الانتحار؟!

وكأن (عماد) لمح تغيرًا وخشونة مُخيفة في نبرة صوت (محمود) وهو يُلقي بهذا السؤال تحديدًا ولكنه أجاب وواصل الحديث:

- نعم؟!!...معقول بتسأل سؤال زي ده يا أستاذ محمود...يعني انت مش عارف مستشفيات الأمراض العصبية عاملة ازاي؟

مين قالَّك إني ما فكّرتش.. هي دي حياة..ماحدش بِيدِّيك الفرصة ولا بيسيبوا في ايدينا أي حاجة...مع إننا بنموت برضه بس ببطء وهما بيتفرجوا علينا وفاكرينا بقينا أحسن وهنخف ونخرج.

- طب واللي يساعدك؟!

- نعم؟!!....أستاذ محمود مالك؟!...إنت بتقول إيه؟

لم يستسغ (عماد) أسلوب (محمود) في الحديث ولا نبرة صوته الجديدة المائلة للخشونة.

- أبدًا...أنا باسهِّل عليك دنيتك الصعبة وحابب أريحك لو تعبان.

- أيوا مش هانكر إني نفسي أغور م الدنيا دي لأني مش عارف أنا قاعد باعمل إيه...بس مش عارف أكتشفت إني دلوقت خايف آخد الخطوة دي!!

- ليه؟!...في حياتك إيه دلوقت تخاف عليه؟... بص كده معايا ع الكام نسخة دول؟...خد...افتح يا أستاذ عماد واقرا خايف ليه؟...افتح صفحة ٣ واقرا المكتوب.

فتح (عماد) الجريدة ليجد المنشور مما لم يتم الاتفاق على نشره بينهما فوجد الحلقة الرابعة، فجُن جنونه دون أن ينطق بكلمة، وراح يفتح بقية النسخ ويرى بقية الحلقات ثم صرخ بهيستيريا.

- يا نَصَّاب يا حقير...هاوديك في داهية !!!...إنت ازاي تعمل كده؟ إنت بتفضحني...ازاي تنشر الكلام ده؟!...أنا هاقوِّم محامي وأقَّفلِكم الجورنال ده.

- إنت بتهزر أكيد...وهو حد في حالتك دي...حد ممكن يصدقه.. حِتِّة مختل عقليًّا مرمي في مصحة ليوم الدين ولا له قريب ولا غريب يسأل عنه مُتخيل إن لك سعر في الدنيا دي

ولو فرضا يعني فرضًا خرجت... وحبيت تعيش حياتك تاني...وده مستحيل...متخيل إن الناس هتسيبك والقانون هيسيبك بعد جرايمك وبلاويك اللي عملتها!!

إنت هنا مجنون....وبره مجرم.

لا مفرَّ...ما تحاولش...صدقني إنت مش محتاج تقعد في الدنيا دي يوم كمان زيادة.

حاول (عماد) أن يتنفَّس بعمقٍ دون جدوى وشعر بأسوار عالية من الظلمات تُطبِق على روحه فتخنقها وتكاد توقف حركة قلبه

وهو في صراعه مع نوبة الذعر ألقى نظرة غير مقصودة على وجه محمود ليجدَه قد تغير تمامًا ولم تعد ملامحه كما عهدها من قبل.

بدأت ملامح وجه محمود تحيد عن البراءة البشرية وتتخذ شكلًا شيطانيًّا عجيبًا وكأنه رجل عجوز دميم يحمل بعض ملامح والده الكابتن ضياء ولكنه كَثُّ الحواجب وقاطب العينين.

تسمَّر وجه (عماد) وهو ينظر لوجهه بذعرٍ إلى أن ابتسم فكشف عن أنياب مثيرة للرعب

والتقزز معًا وامتدت نظرات (عماد) إلى ساقيه لتظهر منهما الحوافر.

من هذا؟!...ومن يكون؟!

هذا ما سأله (عماد) لنفسه وهو يفرُّ من أمامه ويجري من المكان وهو يصرخ بهيستيريا

- إلحقووووووني...إلحقووووني...عايز يموتني.

وعلى الفور تَداركه (التمرجي) المكلَّف بحراسته وطالبه بالهدوء قائلًا:

- مالك؟...مالك يا حاج عماد؟....إهدى إهدى بس...إنت خايف من إيه؟...إيه اللي انت شايفه قولي؟

- الجدع اللي هناك ده؟!

- فين ده ؟!...جدع مين؟

- اللي كان قاعد معايا دلوقت وجابلي قرص بعجوة واداني الجرايد.

- قرص بعجوة؟!!!...إنت جعان يا حاج عماد ولا إيه؟ ده لسه بدري على حصة الغدا

- ياعم رضا...الراجل اللي كان هنا من شوية.

- أنهي راجل...مفيش حد جه...إنت قاعد هنا بقالك ييجي ساعة أهو لوحدك وأنا جنبك.

نظر (عماد) حوله فلم يجد أحدًا، وبدأ يلتقِط أنفاسه ويمسح عرقه المُتصبب بغزاره، وكأنه أدرك أن اللعبة لا زالت قائمة وتذكر كلمات حليفه الجني قبل أن يوصد خلفه آخر باب مغادرًا عالم الجن حين حذَّره من انتقام وعودة (الغبار الأسود) مجددًا.

دخل (عماد) غرفته وهو يتسنِدُ على عمِّ رضا التمرجي ثم تركه عم رضا وخرج وأغلق الباب وهوينظر له نظرة غريبة من خلف فتحة الباب لمَحها (عماد) وفَهم أنه الآن بات مُحاصرًا وأنه لافِكاكَ من المواجهة.

خاصة حين التفت خلفه ليجد (محمود الصحفي) جالسًا على فِراشه مبتسمًا وتحت قدميه دلو ممتلئ.

مرضى الـ Misanthropy من الدرجة البسيطة قد يعانون من تهيؤات وأوهام خاصة بهم لا يراها سواهم فهو مرض اجتماعي يُعرف بعدم الإعجاب العام أو عدم الثقة أو الكراهية تجاه الجنس البشري، أو النزعة إلى كُره أو مَقت الآخرين، وتجنب التجمعات الاجتماعية أو زيارة الضيوف، والنظرة السلبية لقضايا الإنسان.

هذا ما كان يعانيه (عماد) جراء ما تعرَّض له من تنمُّر ومعاملة مُجحفة ظالمة من أقرب المحيطين به خلال طفولته وفقًا لآخر تقرير طبي صدر عن مستشفى الأمل للأمراض العصبية وعلاج الإدمان.

حيث كتب مدير المستشفى الدكتور عزت الفرماوي التقرير بنفسه بعد أن غدت قصة انتحار عائلة (عماد) قضية رأي عام وأصبح كل من يتماس معها على موعد مع الشهرة، فأراد القراء معرفة ما حقيقة المرض المُصاب به (عماد) والذي اعتبره الجميع حلًّا سهلًا لكل هذه الألغاز وتفسيرًا منطقيًّا لكل الغرائب التي حاقت به وبأسرته وتفسيرًا منطقيًّا لكل جرائمه في حق أسرته.

دونَ الجنوح لتفسيرات أخرى ميتافيزيقية وماورائية لا تأكل ولا تشرب مع رجل الشارع البسيط.

وككل الجرائم من حولنا...الحل سهلٌ جدًّا وسريع...بطل القصة مُصاب بلوثة عقلية وإلا فما تفسير ذلك؟...وكيف لساعة ناطقة في التليفون أن تتحول للعنة تلتهِم الجميعَ؟!

هكذا تم إغلاق الملف إعلاميًّا وأمام الناس...فليست كل الحقائق قابلة للتصديق في عالمنا هذا، ولن يفهم الناس الحالة الرمادية وأنصاف الحلول، وفي الوقت ذاته من المستحيل أن يقتنع بأن وراء كل هذا مارد من أقوى وأعتى قوى الشر والجن.

أما داخل غرفة (عماد) فكان صراع الماورائيات الحقيقي متجسدًا بين مارد شيطاني وبشر حامل عهد وممسوس بخوارق جِنِّية قديمة.

قبع (عماد) في وضع القرفصاء مذعورًا في ركن الغرفة، وهو يتأمل في يديه ويتحسَّس وجهه الممتلئين بالبهاق، وظل يراقب محمود خائفًا منه خاصة أنه لا يتحرك ولا ينطق وكأنه إحدى تماثيل الشمع.

وبعد دقيقتين قام (محمود) وأمسَك نُسخ الجريدة وراح يتجوَّل يمينًا ويسارًا وهو يقول ساخرًا:

الناجي الوحيد...

سلسلة حلقات مثيرة حدَثت بالفعل...حبست أنفاس القُراء وأثارت الرأي العام...

لعنات خارقة للطبيعة وقصص لا تُصدق في حياة رجل انتحرت عائلته في غضون ساعات في ليلة واحدة.

عظيم جدًّا...طب إيه رأيك إن الحكاية لِسه ما خلصتش؟!

تصدَّق دِي؟!... تصدَّق إن لسه فيه حلقات جديدة؟!

أنا مش بهزَّر... لسه فيه أسرار إنت ما تعرفاهش.

مش هينفع طبعًا أعرفك بنفسي...لأنك عارفني كويس يمكن ما اتقابلناش وجهًا لوجه قبل كده بس اتكلمنا كتير في العجمي فاكر؟!

لكن برضه أحب أعرفك بنفسي تاني....أنا الغبار الأسود.... كنت فاكر إنك هتهرب مني مش كده؟!

فاكر إنك هتلعب معانا يابن الإنسي.

ما تخافش...إنت مش في تهيؤات ولا تَخْريف...فيه فِعلًا صحفي اسمه محمود بدر الدين وبيشتغل في الأهرام ونشر فعلًا ٤ حلقات من سلسلة قصتك....

مش مصدَّقني صح؟!....محمود بدر الدين مات من يوم ما زرته في بيته ليلة ما سابك وقرَّر خيانتك وفكَّر في شُهرته وترقيته على حسابك.

مفيش فايدة فيكم يا ولاد آدم...لا وترجعوا تقولوا: إن الشيطان غوانا. قَالَ غواكُم قَال، دانتوا تغووا بلد.

أنا خطفت روح محمود بدر الدين وخفيته أسبوعين ومِن تاني يوم رجعت أمارس كل حياته في جورناله...مع زمايله...مع خطيبته....معاك يا أستاذ عماد.

هو أنا كل يوم هأقولَّك وأعرفك إن أنا قدَّك وقد عشَرَة زيَّك وأحسن منك ١٠٠ مرة... إنتوا بتكابروا في الحقيقة ليه...أو أقولَّك كام معركة خسرها جدودك قدام جدودي وكام مرة حرقتهم.... كام مرة انتصرت ونكست رايات وخطفت أرواح ويتمت أطفال وحزنت أرامل.

أنا الحقيقة الـ c.v بتاعتي مُشرفة...فخور بيها...هي هتجيب لي الكلام...وهادفع تمنها حياة أبدية في الجحيم...بس مش مهم...كفاية اللي عملته....كفاية إني شفت انكسارك وذُلَّك وخوفك ورعبك...ولعبت على طمعك وشهواتك وضعفك... قدرت أشتتك وأبلبل أفكارك...نجحت إني ما أنيمكش الليل.

عايز إيه يا أستاذ عماد؟!...عايز ثروة؟!...عايز تعيش بدون بهاق وأمراض وتبقى زي الوحش ؟!...كان نفسك ابنك يرجعلك وما تتحرمش منه؟!

مش عايز تتعب ها؟!

عايزها متقفلة زي الفل وواخدة العلامة الكاملة...صحة وفلوس وعيال؟! مممممم....جميل جدًّا

وأنا كمان من حقِّي أستفيد... وانت طماع أوي يا أستاذ عماد...عايز تاخد ما تِديش...أنا كان ممكن أسيبك تنتحر بس أجِّلت انتحارك....حبيت تعيش لحد ما تشوف قدراتك

وقُدراتي...ولازمتخلص لصالحي... إنت هتموت برضه وتنتحر...بس أنا هاكون أكرم منك.

بلع (عماد) ريقه وظل يتنفس بسُرعة ويتصبَّب عرقًا فأكمل (محمود) كلامه قائلًا:

- أنا عند وعدي...وباقدملَك عرض خيالي....إحنا مش زيِّكم بنخلف عهودنا...فاكر تعويذة النفاذ والخلود... أنا هارجعهالك تاني...بس المرة دي هتسيب عالم الإنس وتيجي تعيش معانا بقانونا إحنا.

وهتعيش علطول...مش هتموت.... المرة دي هيتحقق لك الخلود والأبدية... ما قدامكش حل غير إنك تسمع كلامي.

قام (عماد) مُنتصبًا وقد تبلَّلت ملابسه بعد أن بال على نفسه وهو يتنفس بصعوبة وكأنه يريد قبول العرض.

فجلس محمود على فراشه وقال في كبرياء:

- ليا طلبين وبعد كده هنقلك عالم الجن تعيش معانا معزَّز مكرَّم.

- أناااا....أنا تحت أمرك.

- اِسْجُد.

- نعم؟!

- زي ما سمعت....إيه ما عملتهاش قبل كده في فيلَّا العجمي!!

اسجُد ع الأرض باقولَّك.

لم تكن أول مرة يُعلن فيها (عماد) كُفره وولاءه للشيطان، ولكن هَالَهُ هذه المرة حجم المهانة والهزيمة، ورغم ذلك نزل بجسده على الأرض ساجدًا.

ثم عقَّب في هدوء:

- والطلب التاني؟!

- اااااه...جينا للطلب الصعب...مش احنا متفقين إن حياتك وسط الناس ما بقاش ليها لازمة...وإنك جوَّه المستشفى مجنون وبراها مُجرم...خلاص يبقى لازم تسيب عالم الإنس وده مش هيحصل غير معاك انت بس....لأن معاك جواز مرور قديم لعالمنا.

- طب إيه المطلوب؟...خلَّصنِي....ريحني بقَى م العذاب.

شايف الجركن ده.... مليان بنزين... وآدي الكبريت يالا يا بطل وريني شطارتك.

- طب....أأأأأأ مفيش.... مفيش طريقة تانية؟!

- للأسف وفقًا لقانون عالمنا من مسوِّغات حصولك على حياة أبدية إنك تُعبر من خلال الجحيم...معلش يا أستاذ عماد...كان نفسي ألاقيلك حبل تِشنُق نفسك ولا حبايتين دوا زي بتوع ماما الله يرحمها....ولَّا تنط من الدور العاشر زي الحاج ضياء الله يرحمه ها؟!...معلش استحمل شوية

تَعَب وهتعدي....بس هترتاح العمر كله وانت منِّنا وعلينا مش غريب.

بدون تردد وبإصرار أمسك عماد بالجركن وأفرغه على جسده والتقط الكبريت وفي ثانية أضرمت النار في جسده وراح يصرخ ويركض في كل أنحاء الغرفة ومحمود يشاهده وهو يضحك.

وعلى صرخاته جاء التمرجي ليذهله ما حدَث حين وجده جُثة مُتفحمة رمادية تخرج دخانًا أسودَ ولا يعرف لها أثر ولا ملامح.

انتهى كل شيء...اختفت عائلة القاضي ولم يعُد لها أثر بعد رحيل الناجي الوحيد.

وفي الصباح... كان رئيس التحرير قَلقًا لتأخُّر محمود في الحضور أو حتى الاتصال لتوضيح سبب التأخير عن موعد الطبعة الأولى، حتى كلَّف أخيرًا أحدَ زملاء محمود بالذهاب لبيته المجاور للجريدة لتقصي الموقف، وطلب من سكرتير التحرير الانتظار وحجز مساحة للحلقة في صفحة التحقيقات.

وصَل الصحفي الزميل ليجد الشرطة تُحاصر الغرفة فوق السطوح والمُحقِّق يستجوب الجيران

لقد بذلت الشرطة جهدًا كبيرًا مع الحاجة (أم كريم) خلال التحقيق معها بوصفها آخر من شاهد (محمود) قبل موته، ليفهموا ما الذي حدَث في غرفته في الساعات الأخيرة من الليل حتى تجد الشرطة جُثته مشوهة مقطعة الأطراف غارقة في دمائها... وجرس التليفون العتيق لا يتوقف عن الرنين وفور أن أمسك المحقق السماعة مرتديًا القُفازات تفاديًا للبصمات ورد على الهاتف جاءه الرد بمكالمة الساعة

تمَّت